

الحسن بنمونة
قصص لأبنائي
حتى يناموا
سلسلة إبداع
مجموعة قصصية
منشورات
وزارة الثقافة

الحسن بنمونة

قصص لأبنائي حتى يناموا..

سلسلة إبداع

منشورات وزارة الثقافة

الحسن بنمونة : قصص لأبنائي حتى يناموا
الإيداع القانوني : 2012M0 0263
ردمــــك : 978-9954-581-22-3
منشورات وزارة الثقــافــة
سحــــب : مطبعة دار المناهل - 2012

إلى نجاة وأولادي ابتسام وأسامة

وحسام.

خيال فنان

والآن بدا للفنان، أن حامل السيف، رجل كئيب الوجه، يصيح وهو يمتشق آلته كأنه عازم على ذبح شاة، مندفعًا إلى أمام، تتساقط من جبينه حبات العرق، فتتناثر على الأرض الرملية، وخلفه جيش كثير العدد، في مقدمته رؤوس كثيرة، واضحة المعالم، ووجوه مصبوغة بلون الموت، مكشرة أو حزينة، وشيئًا فشيئًا تصغر الوجوه حتى تمتزج بالأفق المشرب بالحمرة.

ثم لمح الفنان رءوسًا حليقة، تحيط بأعناقها إشارات الصليب. وبدت حسناء، وقد تمزقت السترة عن صدرها، وهي ترفع يديها إلى السماء متضرعة، كان رأسها قد مال إلى الخلف، كأنه يوشك على الانفصال عن جسدها.

ساقاها منفرجتان على ظهر حصان في وضع السقوط إلى الأرض. قائمتاه الأماميتان أقرب إليها من قائمتيه الخلفيتين.

وعندما أمعن الفنان النظر، بدا عليه فزع، لقد نسي شيئًا مهمًا أو هكذا تصوّر، فالسماء الزرقاء كان من الممكن صبغها باللون الأحمر أو الأسود.

ثم، لماذا جاء الرسام بهذه الحسناء في عز الظهيرة، والحرب قائمة، وبعد حين سيلتقي الجيشان المدججان بالعتاد العتيق. فتتطاير الرؤ وس وتسقط الأبدان ملطخة

بالدم والعرق.

لاشك في أنه سينال سخرية لا مثيل لها. سيسخر منه حتى الأطفال، إذ كان من الواجب أن يرسم الفنان صورة المرأة التي ستسقط إلى الأرض في لوحة، وصورة المعركة في لوحة أخرى. وربما احتاج الأمرإلى لوحات عدة، أجل.. سلسلة من اللوحات التي تؤرخ لحرب قديمة، سيضرب بفرشاة، لكن المكان ضيق، أيرسم الحروب وهو ثمل؟!

ربما أراد الفنان أن يقول إن المرأة صرخت، طالبة النجدة، فجاءها النصر من حيث لا تدري، ولكن كم مضى من الزمن حتى جاءت الجيوش المثقلة بالعتاد.

ثم تبين الفنان أن رأس المرأة مائل إلى الخلف، وشعرها مسترسل على ظهر الحصان، وظن حامل السيف أن شعرها هو الذنب عند منبته، وقد كان عليه أن يحلق في السماء حتى يصل إليها، فيسلها من بطن العدو كما تسل الشعرة من العجين.

لكن هذا أيضا بدا صعبًا، لأن الرسام جعل خلفها فارسًا شديد البأس، معتمرًا خوذة، وقابضًا على رمح طويل، واثقًا بقوته التي لا تقهر، إذ كان يضحك في استهتار. وبين رأس الرمح ورأس الحسناء مسافة قصيرة. ولهذا لا مدعاة للشك في مقدرة الرسام الذي جعل حصانها يتعثر، خوفًا من طعنة غادرة.

وعندما تأمل الفنان المشهد جيدًا، ضحك، إذ لاحظ أن على الأرض جثثًا تحتضر، وأخرى مسترخية في سكون، وبجانب إحدى الجثث سيجارة يتصاعد منها خيط دخان، صاح قائلاً:

هذا خطأ لا يغتفر، كيف يجوز خلط حرب قديمة بأشياء معاصرة؟!

وفجأة فغر فاه وبقي كذلك مدة طويلة، تلاحقت أمام عينيه مشاهد صغيرة متتابعة، فعينا الحسناء اللتان ظهر منهما نصفهما، كانتا مصوبتين نحو طائرة مصبوغة بالأحمر، ثم اتضح له شيئًا فشيئًا أن هناك طائرات من ورق تتعقب الطائرة الحمراء، التي يشبه جناحاها ساقي إنسان. ومال نظره إلى الحسناء فتراءت له ريح قوية، عندها تساءل في استسلام. كيف غاب عن ذهني هذا كله؟!

الريح القوية هي التي عبثت بشعرها، فارتمى إلى الخلف، والفارس صاحب الرمح، يشهر آلته باليد اليسرى، فيما يده اليمنى تغطي عينيه. كأنه خائف أو كأن مشاهد القتلى والجرحى تبكيه. بدا أ الفنان أخيرا في غاية الانشراح. وكأنه توهم أن وجود الريح القوية، والدم، والشمس، والظلام، والفتاة، والجند، سيضفي على اللوحة بريقًا لن يخفى على أحد.

وضرب جبهته براحة يده، ثم أغمض عينيه وفتحهما على سواد متراقص غمر المشاهد كلها. وشيئًا فشيئًا اتضحت المعالم، فقد علا دخان الحرب - التي نشبت ساعة أغمض عينيه - في سماء اللوحة. وبدت الحسناء محمولة على كتفي صاحب السيف العاشق، وحامل الرمح مستلق على الأرض الرملية. آلته كسرت.

وكان رأس السيف مصبوغًا بالدم الذي تجمد، وعساكر العدو منكسة رؤوسها، مدبرة في فزع وخنوع شديدين.

ولما تطلع إلى الأعلى (إلى السماء) رأى زخات المطر المخلوطة بالدخان. وعلب السجائر مبللة، أما الطائرات، التي توهم أنها من ورق، فقد صارت الآن طيورًا متفحمة، ساقطة إلى الأرض حيث ينام الأموات.

القصة الفائزة بجائزة : قصص على الهواء لشهر يوليوز سنة 2007.

لا تخف فنحن لا نحدث الضجيج..

(عن فكرة في قصة العسر لغنتر غراس).

- أنت عاجز.

سمعت هذا الكلام من صديق لي يطالع الجريدة في كل يوم، عندما يمر بي. يجالسني ويتلو علي ما حدث في العالم، وفي النهاية يقول لي بتبرم إنه يخصم ثمنها من المصروف اليومي. وما شأني أنا بما يحدث لك أو بما يجري في العالم، حتى إنني لا أدري معناه. فنحن جميعا عاجزون عن فعل أي شيء نحسد عليه.

أيقرأ أفكاري؟ لقد شتمني وعير آبائي وأجدادي العجزة. آه لو كنا في عصر من العصور الخوالي!.

- ماذا سيحدث بيننا أيها الغبي؟

تبا لك أيها الذكي. سيكون بيننا النقع والسيف، ولنضف إليه الرمح والدبابة والطوافة..

فضحك على سخافتي وحمقي. أأبدو كذلك؟ وضحكت على ذكائه الخارق.

تبادلنا السباب والشتم والاتهامات ثم ذهب كل منا إلى مضجعه خائفا مرعوبا. كنا دوما نلتقي لينكل أحدنا بالآخر دون تبادل الضرب بالأيدي أو بالسلاح.

كانت زوجي تتسلى بما يحدث لنا نحن الإثنين، وهي تنظر إلينا من خلل ثقب بالباب المصنوع من صفائح الزنك. لقد استطاع أن يرى ما تفعل، فقال إنها تتلصص علينا. ولهذا عير بابنا المصنوع من الزنك، فرددت له الصاع صاعين إذ شتمت بابه المصنوع من الخشب، وأضفت إلى هذا شتائم صبيانية لا أستطيع البوح بها في هذه الأوراق.. وبعد ذلك لم يعد يمر علي كعهدي به دائما، فحدست أن سبابي أوجع قلبه. ولكم أن تتصوروا ماذا حدث له بعد ذلك.

وضحكت زوجي على سخفي، لأنني لم أعد أهتم بشؤوني العائلية، وأي شؤون؟ إنني أعمل وأسدي خدمات جليلة لوطني، وأشغل بالي بما سيحدث لنا جميعا، كأن نغرق في واد أو في يم.. أو نصدم عمودا كهر بائيا أو نسقط هكذا بدون مقدمات إلى الحضيض. فقالت لي : وما شأنك بذلك؟ اهتم بنفسك. وضربت كفا بكف متذمرة وبكت على حظها السيء. ففهمت أنني لم عد أصلح لأي شيء. أوتفكر في إلقائي في الجب؟ وأمسكت بتلابيبي ودعتني إلى الفراش وهي تربت ظهري وكتفي عازمة على قتلي بحكاية من قديم الزمان. استلقيت على الفراش، ووقفت هي علي تذرع البيت جيئة وذهابا، ممثلة أدوارا وهمية ؛ أدوار الحيوانات المفترسة والأليفة. كانت بارعة في التمثيل حتى إنها استطاعت أن تنيمني. ولما رأت أنني غفوت، أيقظتني بهزات عنيفة وهمست لي : لا تنم يا حبيبي. أعادت ذلك مرات عدة. ولما أيقنت أنني استرددت وعيي تابعت : كان الثور الأسود يذرف الدمع الساخن كأنه الماء المغلي، وينظر حواليه متحسرا على أخويه الثورين الأبيض والأحمر، وقال في أسى :... غفوت قليلا، فوضعت قدمها على بطني. عندها استمعت إلى كلام الثور الأسود العاجز مرغما : أنا أكلت يوم أكل الثور الأبيض. وقلت لها ما معنى ذلك؟ فإن لم يؤكل فإنه سيموت لا محالة. وأرادت أن توبخني بحكاية من مخزونها القديم تشرح فيها كيف أكل هذا الثور الأسود.. فتصنعت النوم. لم توقظني لأمها عزمت ألا تكلم عاجزا يكره إصلاح عجزه. وأي نذالة في هذا؟

إن صديقي الذي كان يتلو علي أخبار الدنيا فخور بموت اليسار في العالم الثالث. أنا أحترم رأيه وفق ما نصت عليه بنود حقوق الحيوانات. وقد نال ضربا مبرحا لما جاهر برأيه قبالة غريمه. وبعد ذلك جاءني مفتخرا بما حققه اليمين من نصر في المؤسسات الاجتماعية. لم أنكل به لأنني وفي لما تنص عليه بنود حقوق الإنسان. نكلت بي زوجي، وجارتي زوج الكسيح الذي يقتعد عتبة بابه متأملا أحوال الحياة الكريهة. وأنا في الواقع لا أضمر أي حقد لأي كان فالناس سواسية ولا يحق لأحد أن يتكبر على الآخر، على الرغم من أنني لا أجد غضاضة في لومهم والتنكيل بهم. كان جاري الكسيح يرغب في التحدث إلى شخص يحب اقتعاد الأرض فلا يجده. وقد حط على الجدار طائر يبحث عن زوجه (كيف عرفت أنه يبحث عن زوجه؟) فعزم على الحديث إليه. لم يكترث له لأن الطائر لا يتحدث إطلاقا، فأشاح عنه غاضبا ثم رماه بحجرة لم تصبه. خرجت زوجه فوبخته قائلة : تحدث إلى الآدميين. فلم يرد عليها. أمسكت بتلابيبه ودفعته على الباب دفعا فرضت جسده. وانكفأ على وجهه شاعرا بالهزيمة. كان يفكر في أن يموت شهيدا. ورأت أنه يبسمل ويشهد فضحكت عليه ونبست : لا يموت المرء بمثل هذا اليسر. قلت هذا الكلام لأنها عاينت احتضار عشرات من معارفها المقربين الذين أضر بهم العجز. وخاف أن تبتلعه الأرض. يا لهول التفكير في الأرض التي تبتلع الإنسان.

ستنكل بي زوجي لا محالة.

دحرجت جسدي الذي تكور حتى عتبة الباب. بابنا يقع قبالة باب جارنا الباحث عن رفيق يتحدث إليه. كان هو ينظر إلى زوجي التي حملتني إلى الأعلى من إبطي، وحطتني على العتبة في وضع القاعد. خرجت زوجه فدلقت الماء الآسن على العتبة حيث جلس فابتل به. ولم يكترث به بل إنه لعق أصابعه وكأنه أكل مرقا، أما هي فقد عضت على النواجذ في حسرة. فهل صار أحمق؟ لحت زوجي ما قامت به فجاءت بالماء الآسن وألقت به إلى الحارة. مر الماء فوق رأسي فسقطت منه قطرات علي. لم أشأ أن أوبخها. ضحكنا معا نكاية بجارنا الكسيح، ولم تعض على نواجذها. فحدست أنني لست أحمق. هكذا تعارفنا بعد طول عداء لا نعرف علته.

إنه يفكر في ملاعبتي.

أمسك بحجرة فرماني بها. فعلت مثله فاستبد بنا الضحك. عثرنا على بغيتنا في أن يرميني وأرميه بالأحجار، فتمادينا في اللعب حتى أصابنا الضجر، فانكفأ كل واحد منا على وجهه. لقد أعلنا الهدنة. ولكنها لم تدم طويلا إذ رماني بحجرة تزن رطلا، ففعلت مثله. أصبت رأسه فنزف. وتمادينا في اللعب بالأحجار ذوات الأرطال حتى تعبنا فخلدنا إلى الراحة. عانق أحدنا الآخر وصفح عنه دون أن نتصل، وقد تم هذا تمثيلا. وبدا أننا كنا في حاجة إلى اللعب بما هو أقسى حتى ينكل كل طرف بالآخر أشد التنكيل. ربما لنثبت للناس أننا لسنا بعاجزين لأننا خلفنا آثار دماء على الأرض. دماء الشهداء. كانت عيناه تقولان لي : إنني أحسن حالا منك. لأن دمي كله قد نزف. فأشرت إليه بعيني قائلا : إنني أحتضر. فبدا لي أنه غاضب علي. وكأنني أخونه. فإذا مت انتهى لهونا العاجز، وعندها أومأت إليه قائلا : لا تبتئس، فإن أردت اللعب بما هو أقسى فاحذر ألاعيبي. رميته بالتراب فأصاب عينيه. لم يعد يستطيع رؤيتي لكنه كان يحدس مكاني. وطفق يقصفني بالتراب حتى أصاب هدفه. وخلدنا إلى الراحة، بعد أن رفعنا رايات الهدنة. وانشغلنا بفحص عيوننا وفركها وحكها ريثما يتبين لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود. فنتابع ارتكاب أخطائنا الطفولية. لكن تبين لنا بعد لأي أننا في حاجة إلى من يلقي بنا في الماء فنغتسل، وعندما نحس بالقوة نشرع في العراك إلى آخر نفس. وخرجت زوجه فبدا عليها الاستغراب لما حدث لبعلها. وشيئا فشيئا استأنست بمشهد كلبين جائعين يعويان، فاستبد بها الضحك حتى استلقت على قفاها (ألها قفا؟). وناولته سيجارة، ولما أشعلها تعمد نفخ دخانها نحوي، فابتلعت هواءها. ووددت لو جاءتني زوجي بسيجارة حتى أكيد له. ولكنها لم تفعل فخمنت أنها تشاهد السهرة الأسبوعية. وبعد حين لم تعد الريح تحمل إلي دخانه. فقد عادت إليه زوجه ورمته بالماء الآسن فابتل جسده. وكاد لي بأن رماني بعقب سيجارته. فأعدته إليه ظانا أنني أسدي إليه معروفا. ولما رأت زوجه ما فعلت أومأت إلي قائلة : أو تظن أنه لا يقدر على إعالة نفسه؟ خسئت وخسئ أهلك. أومأت إليها بعيني المغمضتين قائلا : لن أهتم

بسبابك، فأنت من الرعاع. واستدارت خلفها. كانت تنظر إلى امرأة بالداخل، في فناء دارها. وقالت لها : أصار العالم عاجزا عن قتل الطماطم الفاسدة. وما شأنك بي أيتها الصلعاء. أوجعت قلبها المحطم فرمتني بحبة بندورة. ملت جانبا فأصابت زوجتي وي تشرئب بعنقها من الباب. أزالت عن وجهها آثار الثمرة، وهي تلعن بعلها العاجز عن الثأر لشرفها الضائع. وقلت لها : سترين يا حبيبتي ما أنا فاعل بأعدائنا. وردت علي : إلى متى؟ فرجوتها ألا تهتم بذلك. ولما خلا لنا المكان، أصدرت صفيرا فرد علي قائلا :(وهو لا يتكلم) وما الأمر؟.

- إنها تثير غضبي.
- لا تكترث بها فهي حمقاء.
- تظن أنني حبة طماطم..
- أنا أيضا حبة طماطم.

لقد ائتلف قلبانا، وعندها قررنا أن ننسى حروبنا وكوارثنا.

- عد ما حدث وكأنه جرى منذ ألف سنة..
- شكرا لطيبة قلبك.

حياني بإصبعيه وقد صنع منهما علامة النصر.

- كيف حالك الآن يا صديقي؟
- إنني أحسن حالا منك.

أيغيضني؟

وسألني :

- م تشكو؟
- لا شيء ينغص صفو حياتي. لأنني لا أدري عن الدنيا شيئا.

- لقد بلغت منزلة السعادة.

- فلتدم سعادتنا يا صديقي الغبي.

- لتدم.. لتدم.. حتى النهاية.

ورسمنا معا إشارة النصر.

وأيقظ صمتنا عويل نساء وأطفال.

إننا محمولان في نعش واحد. ننظر إلى السماء التي تنذر بالمطر، ونتبادل الابتسامات.

وتحدثنا دون أن نحدث ضجيجا يثير غضب السماء والأرض والناس.

والليل والنهار

هذه القصة مأخوذة عن فكرة الكاتب
التونسي حسن نصر « والعصر والنشر».

كان الخياط الحزين دوما جالسا على مقعد خشبي يرتق ثوبا ، لما وقف بباب دكانه رجل . سلم واندفع إلى الداخل . اشتم رائحة الكتان وعرق الخياط . أشار عليه بالجلوس ففعل وهو في حيرة من أمره . ونادى الخياط وهو جالس على نادل المقهى الذي يقابل دكانه في الضفة الأخرى من الطريق . فصدع النادل بأمره إذ قطع الطريق في حذر شديد . كان يخاف أن تصدمه سيارة أو دراجة نارية ، حتى وقف بباب الدكان . فصاح الخياط : شاي . وعاد النادل من أتى في حذر شديد . والرجل تحسس نقوده في جيبه . إنها قابعة هناك ، لم تمسسها يد لص مدربة على الرغم من أنه ركب الأوتوبيس .

في هذه الأثناء كان المذياع قد شرع في نشر أخبار العالم التي تثير الحزن في النفس . اكفهر وجهه وهو يخرج سروالا من جريدة كانت تلفه . وضعه على الطاولة ، ثم بسط الجريدة وراح يقرأ أخبار الرياضة التي تثير الفرح .

كان الخياط مشغولا بإصلاح عيوب الثوب الكثيرة ، حتى إنه لم يرفع بصره إليه إلا مرة واحدة ، عندما أمره أن يشتري له بكرة خيط بيضاء ففعل وهو كاره أن يصدع بأمره . ولما عاد وجد أنه كوّر الجريدة وألقى بها إلى الطريق . ويدا على الخياط أنه سئم خياطة فتح الثوب الكثيرة ، إذ كان يخيط الفتحة ثم يرى أن الخيط ينفلت منها ، فطرحه جانبا

ونظر إلى الطريق متأملا عربات الخضر التي احتلت الرصيف، حيث تعالى الصياح المختلط بالسباب.

ولا يدري الرجل كيف جاءه صاغرا، فاستلقى على الطاولة بعد أن أزاح عنها الثوب الذي سقط إلى الأرض، وشرع في إصلاح عيوبه، بأن جمع رجليه جمعا، وشدهما بحبل والرجل يضحك. ولما أنهى عمله ذاك شيك يديه وخاطهما. ثم أمسك برأسه بين يديه كأنه يزنه، وفجأة كسر رقبته. وأماله إلى صدره وغرز الإبرة في لحمة جبهته وصدره. وحمل الرجل الذي فارقت روحه بدنه، ووضعه على الكرسي الخشبي، كأنه نائم وهو جالس. وبحث عن الثوب الذي تمزقت مواضع كثيرة منه فجد في إصلاحها.

يوم حلو.. يوم مر.

بدا له أن الجالس على المقعد الخشبي عاجز عن الحركة. قالت له المرأة التي قدر لها أن تعتني به (وقد خمن أنها أمه، إذ تبدو أكبر منه سنا) : شعر بآلام حادة في ركبتيه، ثم شيئا فشيئا لم يعد يستطيع تحريك رجليه. ما حدث له قاس جدا، ولكنه استسلم للقدر آمنا مطمئنا.

قال له الرجل العاجز :

- أنا الآن أحسن حالا من ذي قبل.

وأغمض عينيه كأنه مقبل على النوم.

- ولكنك عاجز عن الحركة.

قال وعيناه مغمضتان :

- أنا سعيد جدا.

قالت المرأة التي تكبره سنا :

- إنني أعتني به كثيرا. (وتطلعت إليه) أليس كذلك ؟

هز رأسه موافقا وعيناه مغمضتان.

وتابعت كلامها : أحمل الحقيبة السوداء إلى السوق. هناك أفتحها وأضعها على مقعد صغير.

صمتت ونظرت إلى العاجز في أسى. ثم واصلت وهي تبلع ريقها الذي كاد ينفلت من بين شدقيها.

- وأنادي على بضاعتي.

نبس العاجز :

- ولكن النساء لم يعدن مهتمات بالأسورة المطلية بالنحاس.

ذهبت إلى المطبخ، وعادت حاملة صينية الشاي.

- لم يكن يحب شرب الشاي، لأنه اعتاد الجلوس في المقهى كل مساء.

هز رأسه موافقا وعيناه مغمضتان.

- ولما أصابه العجز، صار يأمرني أن أزور المقهى لأحضر له قهوة. وبعد شهر لم يعد يحتمل ذهابي.. فأوصاني أن أهيئ له القهوة في المطبخ.

هز رأسه موافقا، وهو يكبت ضحكة كادت تنفلت.

- ثم رأى أنها تؤلم معدته.

ملأت الكأس، ودنت منه. كان البخار يتصاعد ويتبدد في فضاء الغرفة.

- هاك.

طوح بيديه في ذعر، فأصاب الكأس. اندلق الشاي الساخن على ركبتيه. لم يستطع صبرا فانتفض واقفا.

غرض الفخر.

عندما أمرض لا أحد يشفق علي.

لا أحد يقول يا للمسكين إنه يعاني...

كانوا يقولون إن له قوة ثور. يستطيع نطحنا أو عجننا.. أو شيئا من هذا القبيل.

هذا الكلام يغيظني.

كنت طريح الفراش. ملأ جسم زوجتي الباب. أطلت برأسها.

– ما بك حبيبي؟

– إنني مريض..

– مريض؟ لا تكذب علي.. قل إنك تتمارض.. بالمناسبة.. طلبتِ مني أمي أن أعطيها مالا.. هلا تقرضها إياه. سيزورنا أخي اليوم ليستلمه. ينبغي لك أن تتحدثا إليه دون أن يشعر أنك مريض.. قد يشاع أن لي زوجا مريضا.

– ولكنني مريض.

– مريض؟. لا تكذب علي.. أنا اعرف حيلك..

هذا الكلام يغيظني..

زارنا أخوها واستلم المال ثم ذهب ضاحكا. قالت لي ..

- أنا افتخر بك.. سأفحم نساء العائلة.. أن لي زوجا كريما..

- إن المرض يعصر بدني.. آه..معدتي.. رأسي..قلبي..دثريني..دثريني..- سيزورنا أبي. لا بد أن تتحدث إليه عن أمور الدنيا لأنه مريض. فإذا حدثته عنمرضك المزعوم سقط مغشيا عليه.

- لا عليك.. لا عليك..ولكن دثريني.. دثريني..

زارنا أبوها. جلست قبالته، فحدثته عن أمور السياسة والخضر، والغلاء وديونالأبناك.. وقال لي إنه يفتخر بي أيما افتخار..وشيئا فشيئا بدا لي انني أموت.. وتمثلت وجه صهري خائفا، وزوجي تحثني على النهوض.. كنت محمولا علىنعش ثم قبرت، وزوجي تهدئ روع العائلة الصغيرة والكبيرة قائلة سينهض منكبوته فهو دائما يتمارض حتى يستدر العطف.. ويزيح عن جسده التراب..ولهذا أناافتخر به أيما افتخار وبه أفحم نساء العائلة الكريمة..

أصوات قديمة.

نزعت البنت الصغيرة الغلاف عن العلكة البيضاء، وحشرتها في فيها بدعة واطمئنان كامرأة عجوز. تلوكها بعجرفة، وهي تدوّرها في أرجاء الفم. فتعبق منه رائحة النعناع، وأحيانا تصدر طقطقات عندما تصنع منها كرة صغيرة، وتخزها بسن. كان أبوها متسمرا قبالة التلفاز يتابع طلقات البارود التي تلعلع في شارع مزدحم بالسيارات والمارة، طلقات أسالت الدماء على الإسفلت. تمر عليه من وراء وأمام ويسار ويمين، وكأنها تغيظه بتلك الأصوات البغيضة. طق. طق. طق. وهو لا يطيق سماعها، وإن كانت تذكره بصوت إزالة سدادة زجاجة، قد تثمر ولدا أو ترنحا في شارع مقفر.

التذمر..

كان الناس متذمرين جدا وهم يرفعون رؤوسهم إلى السماء لأنها لم تمطر. وسبل العيش تضيق يوما عن يوم. كثير منهم بدل أن يفعل كذا أو كذا فعل كذا أو كذا مرغما. كان التذمر يعبق في كل مكان كرائحة البارود. أحيانا تمطر في هذا البلد أو ذاك فيتذمرون أكثر. لا أحد يثنيهم عن التذمر. وحدث أن أمطرت السماء، فامتلأت المجاري، وفاضت الوديان والأنهار، وتسربت المياه إلى الدور، ففر ساكنوها إلى الربى متذمرين. كان من الصعب أن يثنيهم أحد عن التذمر.

الحكمة في ألا تدري شيئا.

يعتبر السيد "حكيم" أن الحكم مطروحة في الطريق والشارع وقدام عتبات الأبواب. وحتى تحت الوسادة التي يضع رأسه عليها.. فما أجمل الحياة وما أعظم الحكم. !

قبل أيام كان يحدث أن يجلس في مقهى أو حديقة أو يقف في طابور منتظرا حافلة.. يصادفه صديق فيبدي امتعاضه من ضيق ذات اليد أو سوء أحوال الدنيا. يؤدي هو دور الحكيم فيوجه كلاما معسولا لهذا الصديق قائلا (لا تبتئس. الدنيا جميلة جدا. صحيح أنها تفتننا لأنها فتاة حسناء يريدها كل واحد منا لنفسه.. ولهذا يقع العراك وتنتشر الدماء وتتنجس الأحقاد. وبما أننا بدو رحل فلنشح بوجوهنا عنها قليلا.) ويقاطعه هذا الصديق البئيس قائلا (ومع هذا فهي تدور).. أجل إنها تدور ولكن الحكم مراهم لمداواة الجراح الغائرة في الجسد..

في كل ليلة إذا وضع رأسه على الوسادة استنجد بما يعرفه من حكم وأطال التفكير فيها وفي النهاية يستخلص المقولة التالية (الدنيا إنسان مريض والحكم مهدئات وأنا اقترض منها هذه الحبات. .فهي تسدي إلي خدمة عن طيب خاطر لألا أنتصر لغريمتها.. ولكن من تكون غريمتها؟). هنا نام السيد حكيم دون أن يعثر على جواب. .وان كان يعتبر هذا اللاجواب حكمة من الحكم العظيمة.

الحوار.

_ سيدي.. شركتنا تتهاوى إلى الحضيض..ضرائب وأجور عمال..وبضائع كاسدة..

_ ما العمل إذا؟ أننتحر؟

_ كلا سيدي.. فلنعقد حوارا مع أعدائنا..

_ ماذا تقول؟ نعقد حوارا مع أعدائنا.. ليقولوا إننا ضعفنا..

_ نضعف لنقوى..

_ فهل نحاور الفيل؟

_ فلنفعل..

_ والفيل ضخم الجثة، يأكل كثيرا ولا يشبع.. وقد يهدم شركتنا إذا صدمها.. يا للمصيبة..

_ ومع ذلك، ينبغي لنا أن نحاوره حتى نعقد صلحا..

_ وقد أسمع من يقول فلنحاور الثعلب..

_ فليكن ذلك..

_ أجننت ؟ وما أدراك ما الثعلب .. حيل ومؤامرات ودسائس بغيضة ..

_ ومع ذلك يجب علينا أن نحاوره ..

_ وقد تقول لي فلنحاور الكلب الذي يأنف حتى نظيره من مصاحبته ..

_ فليكن ذلك ، إذا كنا سنسدي خدمة لشركتنا المنهارة ..

_ وقد نحاور الضبع .. يا له من حيوان كريه .. !

_ فليكن ذلك ..

_ أجننت ؟ وقد نحاور أنثى التمساح .. يسكن جسدها حتى إذا دنونا منها وقلنا لها : سيدتي التمساح، جئناك لنتحدث في شأن كذا وكذا .. ونحن نكلمها تنقض علينا ..

_ ومع ذلك وجب التحدث إليها إذا كنا سننهض من كبوتنا ..

_ سيدي ، أنا مضطر لطردك من الشركة المنهارة ..

_لماذا ؟ ألأنني دعوت إلى الحوار .. إلى التواصل مع أعدائنا ..

_ قد نحاور الأرنب أو القط أو الفأر..فنكون أقوياء.. ولكن أن نحاور الفيل والثعلب والكلب والتمساح.. فهذا جنون ما بعده جنون..أغرب عن وجهي أيها اللعين.

حديث ذو شجون.

إلى روح محمد زفزاف.

دأب كاتبنا على إرسال قصصه إلى بعض المجلات والجرائد، ثم يتسلى بالقراءة منتظرا ماذا سيحدث. كان يتوهم أن قصصه ستقلب الدنيا رأسا على عقب، فيشار إليه بالبنان : هو ذا الكاتب الذي نعول عليه. ولو رأيت بيته وفراشه لأشفقت عليه، وربما وهبته مالا لينقذ به نفسه من الفاقة. فإذا طالعه رد من الردود انهارت قواه، وتبلد حسه، فيستلقي على الفراش وهو يسأل نفسه :فيم يرغب هؤلاء؟ أأكتب عن اللاشيء؟ كلا. كلا. لن أفعل ولو أعطوني مال هاروت وماروت. يأخذ المجلة ويبحث عن قصة العدد. إنها تبدو له شبيهة بحبة طماطم أصابها العفن. أو تكون هذه قصة؟. آه، أيها الكتاب الأنذال. إنكم تضحكون على القراء المساكين.

وفي حمأة النكسات التي انهالت عليه، يتذكر ما قرأه عن الكتاب الكبار. كيف يكتبون، وعماذا يكتبون، وماذا فعلوا لأجيال الكتاب الذين جاؤوا بعدهم. كان يحيى حقي إذا رأى في هذا الأديب أو ذاك نكهة الموهبة، نشر له، ودعاه إلى بناية المجلة التي يصدرها، فتحدث إليه، ورسم له معالم الطريق. وتساءل صاحبنا لماذا لم يعد هذا من شيم هذا العهد؟. وتراه متبرما، ساخطا، موجها لومه إلى أشباح تسبح في الفضاء.

استجمع قواه، فكتب قصة بدت له رائعة، ثم أرسلها إلى مجلة. جاءه الرد بعد

شهر أن اتصل بنا. هاتف المسؤول عن الشؤون الثقافية.

_ آلو.

_ آلو. من يحدثنا؟

_ أنا صاحب قصة (الوسادة في مكان خال).

_ آه، أتعني الكاتب الذي طلبنا منه الاتصال بنا؟

_ بلى.

_ أهلا وسهلا.

_ أتريدون نشر ها..؟

_ هون على نفسك. ليس الآن.. ماذا لو قمت بإحداث تغيير في أحداثها. لماذا لا تجعل البطل يلقط دراهم مرمية في الطريق بدل أن يلقط مخلفات في قمامة. أما النهاية فقد بدت لنا مصطنعة. لم هذا التشاؤم؟؟..

_ ولكن..

_ يا أخي، إننا لا نطلب مستحيلا. أنت كاتب يعرف أن قلمه يصنع الأعاجيب. فهل تعدنا؟

_ سنرى.

واستلقى على فراشه شاغلا باله بما جد في حياته الأدبية. يطلبون منه أن يأكل لحمه، فإن فعل اختلط الحابل بالنابل كما يقال. فهل تلائم النهاية البداية؟ كيف يجعل البطل يلقط الدراهم؟ من يصدق هذه الكذبة؟ لقد ذهب عهد القصص الرومانسي إلى غير رجعة. يكون البطل فقيرا وفجأة يعثر على كنز. ولكن ماذا لو صدعت بالأمر؟

أرسل قصته إلى المجلة، فجاءه الرد بعد أسبوعين أن اتصل بنا.

_ آلو.

_ آلو. من يحدثنا؟

_ أنا صاحب قصة (الوسادة في مكان خال) .

_ أهلا وسهلا . سيدي ، لم لا تقلص حجم القصة ؟ وماذا سيحدث لو حشرت فيها موضوع الحب ؟ أو تنكر دور الحب في حياتنا ؟

_ كلا . كلا .

_ فلم لا تجعل للبطل حبيبة يرنو إليها . يمر بمنزلها ، فيرميها بنظرات الإعجاب . . هذا الإعجاب سينمو ويكبر حتى يصير حبا جارفا يأتي على الأخضر واليابس . ولا بأس إذا هددها عبر الهاتف . لا تعيره أي انتباه ، لأنها تحب رجلا آخر . فيتسلل إلى مخدعها عازما على قتلها . . .

صار بطل قصته متيما بحب الفتاة التي تسكن قصرا في غابة ، يحوطه العسس المدججون بالأسلحة الفتاكة . كانت هي تتملى بطلعة الشمس البهية ، أما هو البستاني الذي يشذب الأزهار والأشجار ، فقد توهم أنها تغريه . تسلل إلى مخدعها ليلا ، ولكن الحرس أمسكوا به فنكلوا به أمام بصرها . كانت تضحك عليه . بدا له هذا المشهد مجانبا للصواب ، إذ اختلط الحابل بالنابل حقا ، فلم تعد البداية تلائم النهاية . ولما أرسل القصة إلى المجلة ، جاءه الرد بعد أسبوع .

_ آلو .

_ آلو . من يحدثنا ؟

_ أنا صاحب قصة . . . . .

_ أهلا وسهلا . . سيدي ، لقد وقع حادثان ؛ الأول أن رئيس التحرير استقال ، والآخر أن قصتك لا تلائم خط المجلة التي تنهجه لمواكبة تحولات العصر . فهل يعقل أن ننشر قصة عن قصر في غابة تطل من شرفته فتاة يحبها بستاني فقير . لقد مضى عهد الحب الرومانسي إلى غير رجعة . اكتب لنا عن الحب الذي يقدح في دقيقة ويخبو في دقيقة . أفهمت ؟ .

بلى ، ولهذا صرت كاتبا شهيرا تقشعر له الأبدان .

حفارة..

_ آلو، أتسمعني؟

_ أجل، أجل،أبتاه..

_ كيف تجري المياه هناك؟ أعني هل تجري صافية.. رقراقة..

_ انتهى الدور الأول.. قيل لنا ينبغي لكم أن تجتازوا أربعة أدوار..

_ آه، هذا ما يقال له التدرج.. ولكن لم التدرج دائما؟ لم لا ننهي أعمالنا بسرعة؟

_ هكذا تجري المياه هنا.. نسيت أن أزف إليك النبأ السعيد..مر الدور الأول بسلام. استطعت أكل قطعة صابون.. كانت عسيرة الهضم، ولكنني أبليت بلاء حسنا..

_ أتقيأت؟

_ لم يحدث هذا.. أشعر بلذة لم أعهدها من قبل..

_ أي لذة؟

_ أن ألتهم قطع الصابون..ها ها ها ها..

_ والدور الثاني؟

_ إننا ننتظر أن ينهي شاب التهام قطعة صابون.. يبدو أنه يختنق.. وجهه يصفر ويحمر، ولكنه يقاوم بصبر شديد.. آه، يا للمصيبة. لقد وقع إلى الأرض.. يتلوى جسده من الآلام المبرحة..أتسمع صفارة الإسعاف؟ حمل الآن إلى المستشفى.. يا للمسكين.. كان يعقد آمالا عظيمة على هذه الفرصة.. انتظر قليلا.. حلّ الدور الثاني.. جيء لنا بزجاجة..

_ أي أي أي.. زجاجة؟ إنهم يقسون عليكم..

_ أجل، أبتاه.

_ لا فض فوك.. وتبا لهؤلاء الأوغاد.

_ رافقتك السلامة..

_ آلو، أتسمعني؟ كيف سارت الأمور؟

_ أبليت بلاء حسنا.. بلعت الزجاج وكأنني أشرب ماء..لم أجد أي صعوبة في إنجاز هذه المهمة.. أنت لا تدري أنني تدربت على التهام الزجاج منذ الصغر..

_ آه، أنت من كان يأكل القناني الزجاجية.. وكنا نظن أنها تسرق منا..يا لك من ولد نجيب..

_ يا للمصيبة.. أحد المتبارين يسلم الروح لباريها..أتسمع صفارة الإسعاف؟

_ أجل، والدور الثالث؟

_ سنقفز من الطابق الرابع..

_ أي أي أي.. من الطابق الرابع؟

_ لا تخش شيئا.. فقد بسطوا في الأسفل فراشا وثيرا.

_ سدد جسدك إلى الفراش الوثير..واحذر الأخطاء القاتلة..

_ آلو، هل قفزت بسلام؟ ألم تصب بأي رضوض؟

_ كلا، كلا،وقعت على الفراش.. بل إنني خرقته، فنزل جسدي إلى عمق عشرة أمتار.. ومع هذا لم أصب بأذى.. هؤلاء الأوغاد مبتهجون.. لأنهم اكتشفوا حفّارة مجار وأنفاق..لقد حصلت على وظيفة..ها ها ها..

وداعا للسلاح.

لم يكن هيمينغواي بارعا في صيد الحيتان أو الأيائل والحيوانات الشرسة؛ الحيوانات التي تقطع لحم الإنسان إربا إربا كما ادعى في سيرته أو قصصه اللعينة. كان بارعا في الكذب على مجا يليه وقرائه البئيسين الذين لم يفقهوا شيئا في لعبة الكتابة التي لا تعني شيئا ذا بال يمكن له أن يؤثر في الجيل الضائع أو الجيل الناجي. ذهب إلى باريس فجالس أصنافا من الفرنسيين المنبوذين في المقاهي والحانات والمطاعم ليكتب عنهم قصصا عظيمة بوأته مكانة في الأدب العالمي، مع أن الواحد منا قد يكون أفقه منه فنبوؤه موقعا جنب الطريق. وشرب الروم والكونياك والجعة الرخيصة الثمن، وأكل بنهم أو جاع حتى آلمته معدته، وتزوج صديقته الأمريكية إليزابيث هاد لي لينجب منها أولادا ثم يتخلى عنها وقد تركها وحيدة تتجرع سم العزلة واليأس حتى ذوى جسدها. وانطلق هائما في بحر النساء فتعلق ببولين فيفر ومارتا جيلهورن وماري ويلش، ثم ادعى أنه أصيب في الحرب العالية الأولى، إذ أخرجت من ساقيه وقدميه سبع وعشرون شظية، وحمل على كتفيه جريحا ينزف، حتى إن دمه لطخ ثيابه فظن أنه أصيب بجروح في صدره. وقد جعلته هذه البطولات المزيفة يحصل على رتبة ملازم أول ويمنح الميدالية الفضية الأمريكية، وصليب الحرب الإيطالي نظير ما أسداه من خدمة إلى الشعب الأوروبي الذي كان يأكل خيرات الشعب الإفريقي والآسيوي.. وصادق نخبة

من الكتاب الكبار أمثال شتاين وإيزراباوند الذي أسدى خدمة للشعب الألماني لما لعن بلده شر لعنة ؛ بلده الذي حمى العالم من شر هتلر، هذه البعوضة التي قصمت ظهر البعير. ودخل مكتبة (شكسبير وصحبه) ليتعرف إلى صاحبتها سيلفيا بيتش، فتناوله كتبا ليقرأها مدعما أسلوبه في الكتابة والحياة. كان بوهيميا حتى كاد يشبه البهيمة الأمريكية، وقارئا نهما، وراغبا في معرفة الدنيا بأقصى سرعة ممكنة. كتب قصصا مسلية رغب الكثير في تقليدها فاكتوى بنارها جل كتاب العالم. لم يكن صادقا، إذ آلمنا بنفاقه في ادعاء أكاذيب وأفكار قضت عليه في نهاية الأمر بطلقة من بندقية في الرأس. لم يعد لأي من رواياته أو قصصه تأثير في ما كتب ويكتب بعد انتحاره، فقد سارت الحياة بخطى وئيدة لا تلتفت لأي حادث، ولا تبكت الضمير، ولا تشغل البال بترهات الإنسان. ولم تكن(وداعا للسلاح) وداعا للسلاح حقا. كانت تبشيرا بعالم لابد أن يقتات من القتل والحروب والدم حتى آخر نفس. ولذا لم يجد صاحبنا أي غضاضة في الوقوف على الرصيف، في مكان محايد فيما أصدقاؤه يقفون في وسط الطريق. كانوا معرضين لهزات عنيفة من اصطدام وشيك الوقوع؛ من سيارة قادمة من الاتجاه المعاكس، أو شاحنة من مخلفات الحرب العالمية الأولى أو الثانية. لم يكن هو يأبه بجد لإفلاس أصدقائه ورفاقه، فقد كان مشغولا بترتيب نتائج مباريات الملاكمة مع الزنوج المضطهدين الذين يسرون ويتحلب ريقهم للمكافآت السخية التي سينعم بها عليهم. انشغل باله أيضا بصيد الأيائل في أدغال إفريقيا، وصيد الأسماك الضخمة في شطان كوبا وفرنسا وأسبانيا كان نموذجا لشخص يبحث عن المتعة الكونية ؛ عن شخص ضال يتقن فن المراوغة. كان كالسمكة التي تلاعب الطعم، أما صديقه فيتزجيرالد فكان يلاعب كؤوس الخمرة التي جعلت منه إنسانا مقبلا على الغوص في العدم. وقد أضيفت إليها (الكؤوس) زوجه زيلدا التي خلقت لتعكر صفو حياته. كان على صاحبنا أن ينصح صديقه (وهو يغار منه) قائلا له إنه خلق للكتابة وحدها لا للسكر والعربدة والتشرد في شوارع نيويورك أو باريس، حتى لا يلام في ما بعد لأنه تخلى عنه وهو في أحلك الظروف. ربما كان نعته زيلدا بالمجنونة أو الكلبة التي تعوي ليلا فتؤرق صاحبها، غيرة أو إحساسا بالغبن لأنها لم تستسغ أسلوبه في الكتابة والحياة. كان همها أن تضيع

كاتبا رائعا لأنه لا جدوى من الكتابة الرائعة في عالم غير ذي معنى. هو أيضا يتحمل تبعات الاستهانة بفضل كثير من مجا يليه. كان يفتقد الحكمة في عالم الإنسان ولهذا فضل عليها صداقته للحيوانات الإفريقية يعيث في مراعيها فسادا، فلاحقته لعناتها إلى الأبد.

لمن تقرع الأجراس؟.

لا يدري الحفار كم مضى من الزمن وهو منهمك في الحفر. لقد جاءه رجل، وكان ساعتها نائما، فلكز جنبه حتى استفاق مذعورا. وأمره أن يحفر حفرة. سأله عن قامة الفقيد وعمره، لكن الرجل لم يعره اهتماما. وذهب إلى حال سبيله بعد أن نقده. ونسي الحفار أن يطلب منه إحضار الماء فالمقبرة تخلو منه. ونسي أيضا أن يسأله عن اسم الفقيد، فابنه يشتغل برسم أسماء الموتى على قطع الإسمنت. وعلى الرغم من أنها مهنة لم تجلب غير الشقاء والشؤم لصاحبها، فإن ابنه عازم على أن يظل وفيا لها. وهو دائما يشكر فضلها عليه. والحفار يعرف أشخاصا امتهنوا رسم الأسماء الراحلة وقد صاروا أغنياء. وقد تمنى لو تقوم الحرب فيشتد الإقبال على الحفر والنبش والدفن والعويل والرسم.

تصبب عرق غزير من جبينه، فتساقطت قطرات منه واختلطت بالتراب، وتبلل قميصه الأبيض واتسخ. آه، ستأتون جميعا إلي اليوم أو غدا. أو تكرهون الموت؟ يا لكم من جبناء.. وجد في الحفر حتى تناهى إليه وقع حذاء، فرفع رأسه. كان الرجل يتابع باهتمام بالغ كيف يحفر وينبش. وربت كتفه بأن مال إليه، مهنئا إياه على وفائه لعمله. وناوله سيجارة، فدخن جزءا منها وألقى بالجزء الآخر في الحفرة لأنه تبلل بعرق يده، ووطئه بقدمه ثم أمسك به وألقاه بعيدا. والر ظ. إليه دون غضب. وقال له

الحفار إنه سينهي هذا العمل بعد نصف ساعة، إذ يكفي الآن نحت بعض النتوءات. واختفى الرجل دون أن ينتبه هو إلى ما حدث. وانتظر حتى عزمت الشمس على أن تنام خلف الجبال. ولم يلمح أي أثر اجمع يحمل نعشا، فآثر أن تظفر الحفرة بغنيمة. عندها حشاها ببدنه العرقان. ما آلمه هو أن لا أحد سيهيل عليه التراب.

الكتابة في زمن الضحك.

بلغني أن صديقي الناشر راغب في أن أمده بالجزء الثاني من الرواية وفق ما ينص عليه العقد المبرم بيننا. كانت رواية رائعة حققت مبيعات جلبت لي الأحقاد من الكتاب الآخرين ،وهم بالمناسبة أصدقائي. لا أكن لهم حقدا ولا حسدا، لأنني لا أعرفهم وإن كنت أتوهم أنهم أصدقاء لي. وقد أكون مغرورا إذا أشرت إلى الرسائل الإلكترونية التي ملأت بريدي عن آخره. ومنها من دعتني إلى زيارة القطب الجنوبي لتعليم أبنائه حيل السرد. كان متلهفا على ذلك في ما يشبه تلهف الجائع ،أو حرقة العطشان. هو يعرف أنني أفي بوعودي كما يفعل الكتاب الكبار الذين يبرمون عقودا مع دور النشر الكبرى من أمثال غاليمار أو سوي أو كتب الجيب...،وهذا يجعلني كاتبا مفتخرا بمروءته وفحولته في مجال الكتابة الحمقاء، لا يكن أي حقد أو حسد لأصدقائه الكتاب الذين لم يبلغوا بعد عتبة البيت. ولا شك أن الناشرين الآخرين قد حدثوه عن مآثري وحسناتي إذا نظرنا إلى الشهرة التي حققوها وهم يركبون ظهري،ساعة أكون غارقا في سبات القصص والروايات. كشفت دسائسهم وخياناتهم عندما زرت المركز الثقافي في ألاسكا، فعاينت كتبي وهي مطبوعة بلغات العالم،فقطعت صلتي بهم. وقد أكون مغرورا إذا حدثتكم عن بكائهم وتمسحهم بأهدابي، وشدهم تلابيبي،يرجون مواصلة المسيرة الأدبية التي تقوم على الخيانة الفكرية لكاتب لم تصل أحداث رواياته إلى سقف

بيته. أما هذا الناشر، فيبدو أنه يريد خدمة الأدب، بعد أن أعلن عن رغبته في اقتسام الأرباح، وعقد ندوات، والقيام برحلات مكوكية إلى زحل أو القمر، أو ألاسكا... وأنا في الواقع لم أكن أرغب في ولوج هذه المتاهات لأنني أعرف أن للشهرة حدودا لا يمكن تجاوزه. كان العنوانالأول هو» أحلامالصباح»، وقد حقق مبيعات خيالية إلى درجة أن كويلهو الكاتب البرازيلي ربت كتفي مهنئا، وتحدث عني نجيب محفوظ في ندوة مقهى الفيشاوي مشيرا إلى ضرورة الحذر من هؤلاء الكتاب الشبان الذين سيدمرون الرواية العربية، وأنا الآن أعيد النظر في أفكاره على أساس أ ن أكتب ردا يفحمه، وقد أكون مغرورا إذا قلت لكم إنه أبرق لي معتذرا مخافة أن أسحب البساط من تحت قدميه كما يقال، فيقع إلى الأرض. وهذه المبيعات أسالت لعاب المترحمين فانتثرت في مزابل العالم جالبة لي الوقار، فدعيت إلى التحدث عن أدبي في ندوات على الرغم من أنني واجهت كراسي فارغة، كراسي متصلبة تنظر إلي متوعدة إياي بالويل والثبور، وتولج في قلبي أشواك الحب المخلوط بالغيرة. كانت خالية إلا من جثة ناشري الذي انشرحت أساريره وزوجي وأولادي، وكأنه يريد أن يبين لي قيمة أفكاره، وهو مصيب في هذا الشأن، لأنه ارتأى أن تعقد الندوة شتاء، في صالة مجهزة، على الأقل إذا لم تصطد المثقفين اصطادت المشردين. لم يتسرب إلي الحزن الأدبي، لأن قدر الكاتب رهن بالمعاناة. وقد ردت زوجي هذا السوء إلى خطأ في التقدير. لم أطلب منها أن تشرح لي مضمون فكرتها، مخافة أن أبدو أمامها ضعيف القدرة على تأويل الأحداث، وإن كنت أميل إلى أنها لا تختلف عن تصور ناشري. وحتى أكون دقيقا أقول هل أوعز لها ناشري بزرع فكرته في دماغي؟ فإن كان هذا صحيحا فهو يشبه إلى حد ما أحداث مسرحية عطيل، والمنديل؟ سأخنق به عنقه حتى يسلم الروح لباريها، أما هي فأهجوها ثم ألقي أغراضها إلى الطريق.. ولكن لم هذه الأفكار السود تغزو ذهني، مع أن المستقبل واعد كما قيل لي في باب ردود على القراء؟

ما كان لهذا أن يقع لو عقدنا الندوة شتاء، ولأن الفصل صيف، فلا شك أن المثقفين والكتاب قد وضعوا أسلحتهم جانبا ورحلوا إلى البحار يسودون جلودهم وينثرون الماء على أبنائهم ضاحكين.

رص الصفوف.

لا أجزم بأن صديقي رآني. فلو أبصر جثتي أو إصبعي الذي رفعته إلى أعلى حتى يجاوز الرؤوس لابتسم لي، وأومأ إلي أن تقدم. لا أنكر أن أناسا كثيرين سبقوني إلى إدارة التموين الغذائي، فاصطفوا ثم تناثروا هنا وهناك فشكلوا جماعات تثير الصخب والفوضى. أغضبت صديقي منظم الصفوف فزعق فيهم. تفهموا لماذا غضب عليهم فشكلوا صفا واحدا نزل حتى الدرج الأخير من الطابق الأرضي. يلج البهو غريب يرتدي بدلة سوداء وقميصا أبيض وربطة عنق. يتباهى أمامنا وهو يتقدم خطوة خطوة نحو المقدمة، أي نحو صديقي منظم الصفوف، ببذلته وشأنه العظيم. قلت في نفسي: قد يكون مفتشا عاما جاء متخفيا بهوية مزيفة. ولكن صديقي أشار عليه أن تقهقر إلى المؤخرة، فصدع بأمره صاغرا. أنا أثرت غضب الشخص الذي يقف ورائي، فلكز ظهري داعيا إياي إلى التريث. فهمت أنه يقول: لننظم صفوفنا حتى لا نشبه الحيوانات. فلأثر غضبه أكثر. رفعت إصبعي متجاوزا رأسا كثيف الشعر. احلق شعرك يا سيدي. وقد رد علي بحدة: وما شأنك بي؟ اهتم بشؤونك. لم يستجب صديقي لندائي. تبا لك أيها النحس. وكأنه سمع شماتتي به، فصوب بصره إلي. إنه غاضب علي. تبا لك ولأمك وتموينك الغذائي. أتشمت بي الأعداء؟ إذا لم تكن وفيا لخدمة الشعب فلا حللت أهلا ولا نزلت سهلا. كان الغريب يتوسل إلى صديقي وهو في المؤخرة. لم يكن

مفتشا عاما كما بدا لي ؛ مفتشا عاما بهوية مزيفة. تريث يا أخي ولا تبتئس. كان شباك التموين الغذائي مغلقا. قال أحدنا إن هذا يشي بأن لا أحد يريد خدمة الشعب. لماذا أغلقوا الشباك إذا كانوا يرومون خدمتنا. لا تنكل بأي أحد. فلنعذرهم، إنهم مشغولون بالاستيراد والتصدير. يصدرون الأموال التي يأخذونها منا، ويستوردون التموين الغذائي. فلنعذر هؤلاء المساكين؛ رجال أعمالنا المزيفين. أنا ذاهب. لا تبرح مكانك حتى يدركك تموينك. تبا لي ولك. أتشتمني يا وقح؟ كلا يا عزيزي. أنا أشتم الممون، فأين اختبأ؟ إن صديقي يبتسم لي ويومئ أن ادن مني. ألم تسمع بخبر اختفاء الممون؟ كلا. كلا. لقد اختفى فجأة. يقال إنه التحق بمثواه الأخير في بلاد أعدائنا. أجل. أجل. فأنا أصدقك. ولكن، ألا ترى أنه أسدى إلينا خدمة عظيمة، وكأنه أومأ إلينا أن كونوا بنيانا مرصوصا. فليكن هذا فأل خير لرص الصفوف.

هل تستطيع البكاء تحت المطر؟

سقطت أمطار غزيرة هذا الأسبوع.

كاد الماء يجرف البهلول وهو نائم تحت الشجرة. بقرة المؤذن كانت ترعى في الوادي. نسي أمرها حتى جاءه صبي صائحا : إن بقرتك سقطت في حفرة. كان هو مشغولا في المسجد. لم ينتبه إلى المطر الساقط من السماء، لأن القصة التي كان يرويها مؤثرة جدا وقد أنست الناس ما يدور في الأزقة والشارع. هرع إليها فزعا وهو يلعن الحفار الذي أحدثها، ولم تسلم زوجه من سبابه لأنها تكره روث الدواب.

أما فاطمة فقد ابتلت ثيابها وهي ذاهبة إلى المدينة ماسكة يد ابنها الذي كان يرتجف. الولد الصغير يكره المطر إذا صاحبه البرد. التقاها صاحب الدكان الذي كان يرتدي جلبابا من الصوف. قبل أن تسلم عليه فكر : ربما أغضبها زوجها، وهي تتجه تقصد أمها التي تسكن شمال المدينة. حدث هذا مرات عدة. تعاركا وتخاصما ثم عادت المياه إلى مجاريها.

سلم عليها، وسأل عما بها. قا لت إن الولد طلب منها أن ترافقه حتى المدرسة. صمتت لحظة ثم أضافت :

- ربما خاف أن يعترض طريقه أحد غرمائه.

- الخوف؟ لم يخاف أولادنا؟

والتفت إليه مؤنبا :

- مم تخاف؟

- ليس ذاك صحيحا.

استدار نحو أمه معاتبا. تأوه ونظر يمنة ويسرة كأنه يتفحص المكان. كان هناك مارة يذهبون ويجيئون مسرعين. لم يعر ذلك أي اهتمام. لن تستطيع فاطمة ذات الحظ السيئ أن تدرك حقا ما يريد سي محمد. هي لا تشبه فاطمة ذات الحظ السعيد التي سحرته فصارت تستدين منه لتبتاع السلاسل الذهبية. ذات يوم لم يعثر لها على أثر. ذابت كما يذوب السكر في الشاي. قال هذا الكلام ونثر اللعنات هنا وهناك ثم كتم غيظه إلى حين.

كان الولد يحدق إلى مظلته السوداء. إنها تقيه من المطر. تهوي القطرات من القمة إلى أطراف الدائرة، ثم تنزل إلى الأرض.

قال لها وهو يتملى الولد الذي أسبل عينيه.

- الأولاد صاروا مدللين.

قالت له إن ابنها ليس مدللا، فهو يأكل الخبز ويشرب الشاي، ويهتم بدروسه.

- أهذا صحيح؟ إنه ولد فاضل. هو لا يشبه ولدي الذي يرميني بالحجر.

- أشتري له دفترا فيرسم فيه حشائش وحمارا يركبه شيخ القرية.

- حمارا؟

- أبوه قال لي إنه يعجز عن الحفظ، وأنا أشرت عليه بأن يصمت ولا يحدث أحدا عن هذا الأمر. ابننا رسام.

- رسام؟

– أجل ، فقد طلبت منه أن يرسم البيت . .

– رسم البيت . .

– بل رسم الدار كلها . . أنا في الفناء أصنع الشاي وأبوه واقف علي .

– وماذا أيضا ؟

– رسم الشجرة التي تكاد تسقط إلى الأرض .

حدق إليه مرات عدة حتى أحس الولد بالخجل . ثم بادره قائلا :

– وهل تستطيع أن ترسم المطر يا ولدي ؟

– نعم .

– وترسم مظلتي أيضا ، أليس كذلك ؟

– بلى .

– سي محمد والمظلة والمطر . . أليس كذلك ؟

– بلى .

– سي محمد في دكانه . . هذا سهل . .

– أجل ، أجل .

ومضى الشيخ وهو يضحك . ولم تدرك فاطمة ذات الحظ السيئ أن الماء الذي تسرب إلى ثيابها قد أثقل كاهلها . أما الولد فقال في نفسه إنه سيرسم حمارا تحت مظلة في عز القيظ . وهذه صورة ستضحك الشيخ لا محالة .

قصص وأحداث بحجم صحون الأكل.

لا عيب في أن ألحق بأصدقائي الكتاب والشعراء الأنذال الذين تركوني منشغلا بكتابة قصة، حدثها بدا لي شبيها بشوكة سمكة علقت في حلق شيخ لا يقوى على غير الأكل وملء المقاهي بالكلام. تركوني لأنهم يغارون من مقدرتي التي لا تضاهى في التلويح بالمصطلحات والمعميات فتعمي عيون القراء والمستمعين المساكين الذين لا يعرفون أن الأدب راقد الآن في المستشفى لأنه مرض بداء الفقر، يحقن وريده بالمنغنيز بدل أن يحقن بْالفوسفور. هم الآن يتذاكرون ويتصافحون ويتبادلون التحيات و السلام عليكم، وربما تصنعوا الجدل العقيم للإبانة عن الممتلكات المعرفية، أو لشحذ الذخيرة قبل الدخول في معترك الصراعات الأدبية، وهي مجدية بأي ذخيرة لأن مخاطبة الكراسي الفارغة لا تحتاج إلا لبضع دقائق مخافة أن تنال منا الصحف الباحثة عن الفضائح. وقد لا يقف الأمر بهم عند هذا الحد بل يتجاوزه إلى التندر بالنكت والملح وما جادت بها قرائحهم المتقرحة وما سمعوه من مقالب الآخرين الذين لم يشتد عودهم بعد في عالم الأدب، وربما كنت واحدا من هؤلاء الأدباء الشبان الذين يدعون سد النقص الحاصل في الإنتاج الوطني من القصص والروايات. حاشا لله أن أدعي ما لا أملك. يضحكون علي، يضحكون على خجلي الشديد الذي لا يطاق في حالة الإجهاز على الولائم التي تكلف الدولة مليار سنتيم، وأنتم تعرفون ما فعلت تلك المطربة الشبيهة بالبلشون أو اللقلاق

أو القنفذ أو الجرذ أو الفأر، بنت حلال يريها الله الحلال في عالم الفقراء والمساكين من الأدباء وغير الأدباء، الأنذال وغير الأنذال. علما أنني أنا من فتح لهم أبواب الأكل التي تصاحب القراءات ووضع الساق على الساق وتدخين الغليون كما يفعل السيد أدونيس في الشانزيليزيه أو في باليما أو في درب غلف عندما يريد شرح نظرية الشعرية في عز الشتاء إذا اشتد البرد وتجمد لحم الإنسان والحيوان، أقول أنا من فتح لهم أبواب جهنم في عالم النعم التي نسعى بها إلى خدمة الثقافة والتنمية في الندوات التي لا يرى أحداثها بحسناتها وسيئاتها إلا المنظمون المكفرة وجوههم لأنهم لا يفقهون شيئا في مجال المعميات، ولكنهم أحيانا تراهم مبتسمين أو مصفقين لأنهم يبتغون مقعدا من الدرجة الأولى في سلم المجتمع المدني. آه، أيها الأوغاد وكأنني هرمت فلم أعد أقوى على التهام كبدة خروف أو قلب نعجة أو قائمة ثور، أيها الأنذال لم هذا الاحتقار لشخصي الأدبي وكأن شهرتي تبددت في الهواء، وكأنني لم أنل إعجاب كبار الكتاب أمثال معضوض أو أنتوني كوين أو سلفستر ستالون أو غريتا الجرب ، وكأن ما كتب عن إسهامي في إنتاج الحليب القصصي كان هراء منثورا سودت به الصحف بياضها، وكأن المحاكمات التي كبدت الدولة أموالا طائلة ذهبت سدى، وكأن هذا العبد الثقافي الماثل أمامكم لا يفقه شيئا في عالم الأدب والأكل والموائد والولائم والشراب ثم الهرب إلى بحر الخيال بادعاء أنه الوجه المسموح به في عالم الواقعية.. فلنتريث قليلا قبل أن أقدم على إفراغ ما بجوفي من الأكل الذي يعمر سنتين من النهش والنبش في أعراض القصص المجردة من سروال الحدث الرئيسي والأمكنة والأزمنة الكلاسيكية والشخصيات التي لا شغل لها إلا ملاحقة بنات الثانويات، علما أن لها وظيفة سردية لا تحسد عليها إذا أخذنا بعين الاعتبار أنها ملتزمة.. فلنتريث قليلا قبل أن نشيع بين الخلان الفرقة والحروب الثقافية.. وأنتم الآن في بيتي بالطابق الرابع، في مكتبتي التي أوجعت رأسي بالمعارف والأحداث التي أثمرت خلاصة اللعب في قعر الصحون بالشوكات والملاعق، أرتدي ملابسي على عجل، وزوجي تحثني على التروي قبل الإقدام على خوض أي معركة ضد هؤلاء الكلاب الذين يريدون الانفراد بحقوق الأكل المجاني ، فقد يكون مقلبا من المقالب وهي كثيرة هذه الأيام تبعا لمقالب السوق العالمية وانخفاض سعر الدولار وانكماش

طموح رجال الأعمال الذين دخلوا سوق الثقافة بغية تنمية الجانب القروي الذي كسره الجليد وغمره الطوفان. وقد أصير أضحوكة، وهذه سبة لا أرتضيها لنفسي،من قبيل أنه صدق إقامة حفل قصصي بمناسبة اليوم العالمي للحكي فشمر عن ساعديه، وأن زوجه أخفت بيت دفتي كتاب ملعقة ليستعين بها عند وقت الحاجة.، أو أنها ترغمه على أن يدس في قراطيس قطع الحلوى التي تروق الفم.. فلنتريث قليلا أيها الإخوة الذين يدركون قيمة هذا العبد الثقافي الواقف أمامكم، لأنني ارتميت في جوف سيارة أجرة آمرا السائق أن يمرق نحو المحطة الطرقية، فأنا أعرف أنهم الآن صاروا يشتدون بخلا يوما عن يوم، ومنهم من انقطع عن عادة التدخين مخافة ألا يستطيع الإجهاز على قدر لا بأس به من الأكل بعد أن يكون شدقاه قد تآكلا وتقرحا بفعل الكلام والشقشقة والهرطقة الصبيانية، والحديث عن القصة الموءودة في مهدها وهي تتطلع إلى السماء من فتح في خرق بالية، لأنها لا تقرأ في الكتب التي تعرض في المكتبات وهي تمتص رحيق شعاع الشمس حتى اصفرت فاكتأبت لهذه الحال الذي انتهت إليه. فلنتريث قليلا حتى لا تنزعجوا لهول اللحم الذي شممته وهو ينزل من عربات تجرها خيول مطهمة بعد أن هيئت بعناية فائقة، وإتقان برع في إجادته طهاة من الدرجة الأولى، لتصل السيارة إلى المكان الموعود وأقفز منها كثعلب رماه بستاني إلى الخلاء، ولكم أن تتصوروا أنني انقلبت مرتين قبل أن أستقيم واقفا، وتكون الطامة الكبرى طامة كبرى لأنني لما لم أعثر لهم على أثر استبد بي البكاء لولا انزعاجي من أن يبكي أديب في محطة حافلات، وهل يقدر هؤلاء الذين سنحشر معهم جميعا في يوم ما بكاء كاتب أحس بالغبن لما أفرد إفراد البعير، وودت لو ألحق بهم عدوا جريا على عادة العدائين المغاربة الذين أبهروا العالم، ولكن التدخين المفرط لاستنزال الأفكار والأخيلة أتعب قلبي، فدعيت عليهم بالويل والثبور ثم إنني صرت آوي إلى مقهى عسى أن أطالع خبر وقوع مصيبة تأتي عليهم، على الأقل لأتفادى منافسين في مجال الكتابة الحمقاء، فهم الآن يعرضون عضلاتهم النظرية لاكتساب أكبر قدر من القراء، ولا شك أن التفكير العميق في تلك الأفواه وهي تلقم ما لذ وطاب من الأكل والشراب، من الدجاج واللحم المشوي والمقلي والموز والتفاح الإسباني.. قد كاد يودي بي إلى الجنون ، ولو تحقق ذاك لعد مقلبا من

المقالب التي تسعى إلى النيل من إرادة الكاتب وتكسيرها، وتشاء الأقدار أن يتذكر جولاتي المجلس البلدي فيكلفني بقراءة الوضع العالمي في ضوء الغزو الثقافي للعقار الوطني، ولنتريث قليلا قليلا أيها الإخوة لأنني شنفت مسامع المتبعين وهم كراس مصفوفة بعناية فائقة يحرسها حراس أمن من شركة الحراسة ليلا ونهارا، يتطلعون إلي بأعين منتفخة لم تنل كفايتها من النوم ويبتسمون؛ أولاد الأنذال إنهم يعرفون أنني الآن أشتم رائحة اللحم المثقف السابح في بركة من المرق الاجتماعي الذي يروقني وقد يودي يوما بحياتي، وفواكه يفوح منها عطر الطبيعة الخلابة وكأنها فتاة حسناء تذرع هذا الطريق جيئة وذهابا، ولنتريث قليلا أيها الإخوة لأنني قرأت الموضوع بالمنهج التوليتاري مستخلصا أن الأدب أب سكير يثمل في كل ليلة ولهذا لا تلد له الأديبة إلا السكارى. كاخ.. كاخ..كاخ..، فيا لها من تصفيقات وابتسامات وضحكات ممجدة أو ساخرة وعويل وصفير ونقر بالأقدام على سبيل الاحتجاج، ثم اهتممت باللعب بالملعقة،ولما رأيت أنها لا تفيد في مثل هذه المناسبات استعنت باليد وكدت أشرك القدم لولا تفكري في أن مكانها هو ساحة ملعب، ولا بأس من ذكر أن الانتفاخ صار يسري في جلدي ولحمي وقد امتلأت معدتي بأصناف شتى من المأكولات، والانتفاخ يزداد كبرا فلم أعد أحتمل ما لا يطاق وتذكرت أصحابي الذين انقطعوا عن عادة التدخين وكيف أنهم الآن يشتدون قوة وتبرز صدورهم وربما تبادر في خلد أحدهم أن يتباهوا بالعضلات أيها أقوى. هذه الأفكار تبدو لي أسخف من كتابة قصة لا يستقيم حدثها، ولكن ما دخل القصة والحدث والشخصيات في هذا الإحساس بالألم المبرح. فلنتريث قليلا قليلا لأنني استفقت على صفعات تنال من زينة وجهي، وأصدقائي يطلقون ضحكات مستهترة تصم أذني، وقد تجلدت مخافة أن يقال إنني تخليت عن المبادئ الأساسية لكتابة قصة جيدة يستحسنها القراء الذين رحلوا إلى البحر يسودون جلودهم. كانت مقلبا من مقالب الكتاب اللعينة، أن أصغر في عين حبيبتي القصة المقصوصة الشعر، وأن أبدو كأشعب الأكول الذي يكبده الجوع خسائر لا تقر بثمن.

ولكن لا بأس علي،إذ ينبغي لي أن أقاوم الترهات التي تريد النيل من مقدراتي

الفكرية وأن أكيد لها دون أن أفقد الوقار الذي يجلل الأدباء الأقحاح. لازمتني زوجي مشكورة في هذا الإشكال الثقافي، فحبتني بعطفها وحنانها وهي توصيني بضرورة مواصلة الكتابة، لأن العراقيل كثيرة وهي لا تحبط المقدام، ولا تخلف إلا الغبار خلفه. كادوا لي بهذا المقلب العجيب الذي لم يخطر لي على بال، ولكنني عازم على الثأر لشرفي المهدور ولو تطلب مني ذلك التفكير ليل نهار لاختراع مقلب يهز أركان عروشهم الخاوية. فلنتريث قليلا قليلا أيها السادة الذين سيطلعون على هذه الأوراق، فلنتريث قليلا حتى لا نفقد صوابنا ونأتي فعلة نحاسب عليها أمام التاريخ الملعون. أيها السادة الذين يفقهون في الأدب المغموس في المرق أنا لا ألوم أحدا لأنه تخلى عني في محنتي هذه، ولا أبكت الضمير لأنه لم يشعل فتنة بين عموم الكتاب الأنذال، لأنني قادر على إلزامهم الصمت بما أملك من أسرار عجيبة تبنى منها عشرات الروايات الفضائحية. وأنا لن أفعل ذلك مخافة إشعال فتنة بين هؤلاء الكتاب الأنذال، ولا شك أن زوجي كانت غاضبة، وغضبها يكفي_ لو جمعت نثاره_ لقتل فيل بله هؤلاء وهي تحتني على الكيد لهم ولو في باب القراء في جريدة لا تقرأ إلا لماما. وهي حتما لا تفهم في أمور السياسة بله الثقافة المعقدة، كأن تقول لها إن الردود تخضع لحسابات وإيديولوجيات (ألم أقل لكم إنها تحشر أنفها في ما لا يعنيها؟)، ولا تفهم شيئا مما يقال، فترطن بكلام لا أفقه معناه فأستنجد بالمعجم العربي لشرح الكلمات المتداولة على ألسنة العوام، وللك أن تفهم ما المراد بالعوام الذين يعومون في بحر من التخلف والجهل وهم يفتخرون بذلك، وأحاول كبح جماحها لألا تستولي على مشاعري فتؤثر في سياستي الثقافية التي أريد لها أن تسير في هذا الطريق لا في ذاك الطريق. ولكم أن تخمنوا كم المضايقات التي تصدر عن هذا المخلوق الذي كتب عليه أن يحشر معي في هذا السرير الأدبي. أنا أطمح إلى إحداث ثورة في صحون الأكل المخلوطة بماء القصص وهي تسعى إلى أن أشغل بالي بما فعل في أصدقائي الكتاب وقد آثرت أن أتناسى ما حدث، لأن ما لقيصر لقيصر وما للأدب للأدب.

يعقد اتفاق مصالحة وأنا أطالع أعدائي بابتسامات من نسي الماضي الكريه، وينتهي

بالعناق الحار بين الخلان الأعداء.

وأنتهي إلى أن الله غفور رحيم، فليرحمنا جميعا أيها السادة الكتاب، أصدقائي وأعدائي.

الدار البيضاء. **20 - 05 - 09**

غروب.

قال له أبوه:

_ أتحب أن تكون فارسا؟

غمرته فرحة لا تقدر بثمن.

_ بلى.

(لحظة صمت، يربت خلالها الأب ظهر ولده. الأم تخرج من البيت، وتطارد الدجاج. الديك الوحيد يبدو عنيدا، وعازما على الانقضاض عليها. إنه لا يخاف لومة لائم.).

_ مثل جيمس بوند.

_ لكن بوند ليس فارسا.

لمح الأب غضبا دفينا في عينيه. بوند يحلق في السماء كطائر الوقواق، ويغامر ويقتل أعداءه بعد أن يسخر منهم. ويهديه قبلا.

الولد يضحك.

_ سأعلمك كيف تركب فرسا يثير الغبار.

_ الغبار؟ (لحظة صمت). لا. علمني كيف أقود سيارة.

_ لا أملك سيارة.

_ لماذا؟.

_ لأنني لا أملك مالا.

_ فكيف استطعت شراء فرس؟.

_ أهدانيه أبي.

_ لماذا؟

_ كان يحبني.

_ أنت لا تحبني.

_ لا تسئ الظن بي يا ولدي.

_ إذا علمني كيف أقود سيارة.

كان الفرس مشغولا بأكل التبن. الولد يفكر : سيارة بوند لا تأكل التبن. تحلق في الفضاء الواسع، وتقف عند أرصفة الفنادق الشهيرة.

ولما صهل الفرس قال : أن سيارة بوند لا تصهل. تسابق الريح فتغلبها.

نام الولد، فحلم أنه يمسك بمدية، وقد نحا نحو الفرس المشغول دوما بأكل التبن،عازما على ذبحه.

(لو يشفق عليه بوند فيهديه سيارة واحدة من مخلفات معاركه المزيفة.)

الهوى.

أمسك آلة التصوير وأرسلها على كتفه، قابضا حزامها بفخر وخيلاء. يمشي بتؤدة وهو يشعر بثقلها على جنبه الأيسر. لم تكن تؤلمه.

مر بمقهى الليل والنهار في كبرياء. كان هناك أناس يجلسون لينتظروا شيئا ما : امرأة أو صديقا. ومر على بائع السجائر فاشترى سيجارة. وفكر في أن يتناول أكلة البيض. سيلتهمها التهاما ويقف قبالة المرآة متأملا وجهه الذي ينز عرقا والآلة لا تفارق كتفه.

في الضفة المقابلة للمقهى شجرة ذهبت عنها أوراقها، وبقيت أغصانها مذعورة تكاد تصل إلى نافذة البنت التي يحبها العسكري.

العسكري أخذ إجازات كثيرة، وجلس طوال اليوم يرقب البنت التي صارت تشبه عودا من تلك العيدان المذعورة. اشترى الكأس والزجاجة ثم نزل إلى البحر يبغي الأمان الأمان. هناك شرب وبكى، وبكى وشرب، والليل باسط أهواله، والبحر باسط أمواجه حتى أخذته غفوة، فابتلت ثيابه وعاد خائبا لا يلوي على شيء. قال إن عليه أن يلقط صورة للشجرة الخلية من الأغصان دون أن يصيب النافذة فيعطيها العسكري الذي سيذهب عقله. وقف جنبها وقرّب العدسة إلى عينه اليمنى ثم أغمض عينه اليسرى.

وأمال رأسه إلى خلف حتى آلمه عنقه. رآه أطفال فتحلقوا حوله يتطلعون إلى أعلى الشجرة. ولما أطلت البنت المصابة بالكآبة بصقت. والريح طيّرت بصقتها فتناثرت في الهواء. وعندها أبعد الآلة عن عينه اليمنى. صاح العسكري : حرام يا بنت.

ولما رأى ما حدث قال في نفسه :

(البنت لا تحب أحدا)

وعزم على أن يريح نفسه من عذاب بنت حزينة.

_ ألم تجد غير هذه الشجرة؟

_ من؟ (لحظة صمت).

صورة من أسفل. سيبدو كل شيء مقلوبا. وأمال رأسه ثانية. رفع الآلة إلى أعلى، ثم حط العدسة على عينه اليمنى ببطء شديد. البنت تبدو مثل عصفور حط على الغصن. مثل نهر جف وسمكة في قعره تحتضر في ذعر. ظن العسكري أنه لا محالة ساقط فجرى إليه. وقف خلفه وشد وسطه بكلتا يديه. عندها صاح المصور : هذه أجمل صورة ألقطها. آه، ما أجملها، ما أجملها!!

في نهاية الطريق كان الشرطي يلعن :

_ هذا ممنوع. .ممنوع.

وانفتح باب، فخرجت منه امرأة. ناولته زجاجة ماء، فطفق يعبه عبا دون أن تفارق عيناه ساقيها المعروقين.

الداخلة. **1994**.

الحب في زمن الرومانسية.

عندما تحب كريمة فحبها يكون شبيها بسكين حادة.

كريمة تحب ابن الجيران الموظف في البلدية بأجر لا بأس به لمواجهة أعباء الحياة، لأنها تريد التشبه بفتيات الأفلام الكلاسيكية اللواتي يحببن رجالا من الطبقة الفقيرة أو المتوسطة.

أما زميلتها في المدرسة الثانوية جميلة فإنها تحب ابن رجل الأعمال الذي يدرس في الفصل العاشر. هو لا يدري أنها تحبه مع أنها تأتي بإشارات تفيد هيامها به.

أرادت كريمة أن تتوسط لها فتخبره بما فعل الحب بها، إلا أنها صرخت في وجهها قائلة: لا أرغب في أن أرغمه على حبي فيظن أنني فاسقة. أنا فتاة شريفة النسب، فلا داعي لإزعاجي بمثل هذه الترهات.

تقول كريمة: لا حرج في الحب. وتضحك عاليا لتغيظ جميلة، هذه الفتاة الشقراء الحسنة المنظر التي يتهافت عليها الكبار والصغار. وجميلة تداري غضبها وتكظمه في قرارة نفسها.

وابن الجيران الموظف في قصر البلدية يصاب بوعكة صحية فيتوارى عن الأنظار

مدة من الزمن، وتسأل عنه فتخبرها أخته أنه نزيل الغرفة 5 بمستشفى الشفاء. يعتريها إحساس بفقدان شخص عزيز على النفس فتجهش بالبكاء، وتشتري باقة ورد ثم تيمم شطر المستشفى، وتدخل الغرفة 5 فلا تعثر عليه. تقول في نفسها : هل مات؟ فإن كان الأمر كذلك أقدمت على الانتحار. وتخبرها ممرضة أن فتاة تدعى جميلة عادته قبل ساعة ثم تواريا عن الأنظار. تقول في نفسها : جميلة، أتريد الاستئثار به؟ كلا. قد يكون هذا سوء تفاهم أو تكون الزائرة أخته أو ابنة عمه.. أما جميلة صديقتي الوفية فلا أصدق أنها تأتي هذا الفعل.

وفي حديقة المستشفى تكشف كريمة شر جميلة. هما جالسان يتبادلان الحديث وقد شبكا أيديهما. أي حديث يدور بين فتاة وفتى وهما أعزبان؟

في الثانوية لا يتوانى ابن رجل الأعمال في التقرب إلى كريمة لأنه رأى أنها فتاة ذات نسب وشرف، وهذا أغاظ زميلتها جميلة،وهما الآن متخاصمتان. كانت نظراتها تقدح شررا.

ابن رجل الأعمال تقرب أكثر إلى كريمة، فصارت تكتب له الرسائل الغرامية، وكان هو يقرؤها ويعيد قراءتها حتى كاد يصاب بلوثة جنون. إنه لا يني يذكر اسمها في يقظته وغفوته.

قال أبوه : من يداوي ابني فله نصف ثروتي.

تحلب لها ريق الفقهاء الذين سطروا طلاسم وطروسا، وهذا لم يؤت أكله.

وتحلب لها ريق الأطباء الذين سودوا صفحات من أسماء المراهم.

ها هي كريمة تحمل إليه باقة ورد أحمر.

ترى حبيبها متدثرا بخرقة بيضاء، فترتمي عليه غير مهتمة بالنظرات المريبة التي تحيط بها من كل جانب.

وترتفع الحناجر مصوتة : ها هو قد استفاق من غفوته .

كان لهذه الالتفاتة أثر عميق في تمتين أواصر العروة بين كريمة ورجل الأعمال .

جميلة الفتاة التي تبدو لنا لعوبا تتخلص من حبيبها الموظف بطريقة بشعة، تشهر في وجهه سكينا فيلوذ بالفرار غير مصدق أنه نجا بجلده .

مسكين هذا الموظف الحزين دوما ! .

إنه يرغب في التخلص من أدران الحب البشع . وجميلة ضربت عليه بنسجها فهي كالعنكبوت . كان المسكين يبحث عن زوجة تقدر مشاعره .

جميلة تقسم بأغلظ الأيمان أنها ستثأر لشرفها الضائع . ماذا يحدث في هذا العالم؟ أتتزوج كريمة ابن رجل الأعمال؟ كلا . كلا . ما هذا الهراء؟

استلت السكين من حقيبتها اليدوية ورفعتها إلى السماء متوعدة كريمة، وصاحت : سأجز بها عنقك أيتها المتسخة العفنة التي لا تقيم وزنا للصداقة والزمالة .

تركب عائلة رجل الأعمال السيارة الفارهة وتتجه صوب عائلة كريمة التي تسكن زقاقا ضيقا، راغبة في تمتين أواصر العروة بين العائلتين .

تكاد جميلة تجن وهي تسمع الزغاريد تنطلق من الزقاق الضيق، وأغاني عمرو دياب تصدح عاليا في فضاء الحي . تعتري بدنها رجفة هي رجفة الإحساس بالقهر والظلم، ولهذا عزمت على الانتقام .

في الثانوية تخرج من محفظتها السكين وتجرح به خد كريمة التي هرعت مسرعة إلى أقرب مستشفى على أمل أن يوقف الطبيب النزيف . آلمها أن لا أحد عادها . لم يزرها رجل الأعمال أو ابنه، فماذا حدث لهما؟ . ولم يقبض على غريمتها جميلة . أهذا ما يدعونه بالحب في زمن الواقعية؟ .

قالت لها أمها : لا تكترثي لها . هي جبلت على الإساءة إلى الآخرين . لا تدري أنها في يوم ما قد تصاب بما هو أعظم . فلتتزوج ابن رجل الأعمال وليذهبا إلى الجحيم معا .

جميلة وابن رجل الأعمال يتزوجان ويطيران جوا إلى جزر الباهاماس لقضاء شهر العسل، وأي عسل؟

يتفرجان على المآثر التاريخية ويشتريان تذكارات لتوزيعها على المقربين وأفراد العائلة. يركبان الخيول والفيلة ويزوران حديقة الحيوانات، ويلقطان صورا تجمعهما مع الأسد والنمر وهما من وراء شباك الأمان.

كريمة تتابع دراستها وتتخرج دكتورا في الطب. يا لها من مهنة نبيلة تقدم خدمات جلى للإنسانية.

كريمة تعين في مستشفى الشفاء لخدمة الفقراء والأغنياء.

ذات ليلة تصطاد سيارة الإسعاف امرأة مضرجة بالدماء. إنها جميلة غريمتها في الثانوية.

جميلة تفتح عينيها بجهد لترى ما يحدث، فتلمح وجها كان مألوفا لديها. إنه وجه كريمة.

_ سامحيني يا كريمة لأنني أسأت إليك.

تواصل رتق جروحها الغائرة دون اهتمام بكلامها.

_ كريمة، كريمة..

خلف باب قاعة العمليات يقف رجال ونساء، هم إما من عائلة جميلة أو من معارفها كرجل الأعمال وابنه والموظف في البلدية. ترى الحزن باديا على وجوههم. هذا ما أملاه عليهم واجب الصداقة أو المصاهرة. يفركون يدا بيد أو يرطنون كلاما غير مفهوم. هو الحزن إذا وقد دثرهم جميعا بغلالة سوداء. ثم نرى كريمة وقد أنهت واجبها فخرجت من القاعة. لم يصبها أي إحساس بالدهشة أو الاستغراب. تسير الهوينى في الردهة الطويلة، وخلفها نظرات تلاحقها باهتمام بالغ.

في المقهى نراها تحادث زوجها وتنظر إلى ابنتها بحب وامتنان.

كان الجو صحوا يشي بقدوم أفراح تنسي المرء أتراح الذكريات القاسية؛ أتراح الرومانسية في زمن الواقعية.

اعثري على زوج يحبك.

_ أماه، كيف حالك ؟ أرسلت إليكم حوالة، هل توصلتم بها ؟

_ أجل. وأنت كيف حالك ؟ على الأقل، أنت أحسن حالا منا. أخوك دخل السجن، وأبوك الذي أخذ من الحوالة نصفها ارتمى في حانة حتى الصباح. نحن جميعا فرحون، فأنت في فرنسا.

_ أجل، أنا في فرنسا، ولكنني أعمل لإعالتكم.

_ لا تهتمي بما أخبرتك به. أخوك سيخرج من السجن بعد أربع سنوات، وأبوك لن يهتم لأمره أحد بعد سنتين.

_ هذه أخبار لا تبشر بالخير.

_ جلب لنا أبوك العار. لا أحد في الحي يشير إلينا بالبنان. يقول الناس إن عائلتنا نجسة.

_ هذا يحدث عادة عندما يرى الجيران تحسن أحوال أسرة ما.

_ ابنتي. سأخبرك بأمر. أنا في الواقع..

_ ماذا؟ لا تخجلي أماه.

_ أبوك لم يعد يهتم بي، صار يكثر من السهر خارج البيت، وأنت تعرفين ما يحدث لامرأة لا يبالي بها زوجها..

_ أجل، اجل، ولكن هذا لا يعني أننا سنسقط إلى الحضيض.

_ أنا.. أنا أحب..

_ أماه ! أأصبت بالجنون؟

_ سرق نصف الحوالة ليخفف أحزان امرأة غريبة، هذا ما تلوكه الألسنة.

_ أنت مجنونة.. وما شأنك أنت؟ وأنا..

_ أنت في فرنسا.

_ فرنسا؟ من أنا؟ أنا عاملة في مطبخ. أغسل الأواني وأنظف طاولات الأكل.

_ ولكنك عاملة براتب جيد. ما ينقصك هو أن تعثري على زوج يحبك.

_ لا أحد هنا يفكر في الزواج.

_ ماذا حل بهم؟ ألا يعرفون الحب؟. يا للمصيبة. لا يحبون ولا يفكرون في الزواج.. !

_ هذا شأنهم. لا ينبغي لنا التدخل في شؤون الآخرين. وهذا الحبيب، من يكون؟

_ إنه صديق أبيك.

_ صديق أبي الذي أراد الزواج بي.

_ لا يكن لك إلا الاحترام.

_ وماذا يريد منك.

_ وعدني بالزواج عند طلاقي.

_ إنه يريد التقرب مني أنا التي خلبت لبه.

_ هو على الأقل لا يسكر ولا يدخن ولا يطيق السهر خارج البيت .إنه رجل شهم. يزور أخاك في السجن، وهذا لا يقوم به أبوك. لم يعد يهتم حتى بأولاده.

_ سيتغير حاله. لا تستسلمي لهذه النزوة العابرة.

_ لا أحد يمنعني من الاقتران به. وأنت، ينبغي لك البحث عن زوج.

_ قلت لك لا أحد هنا يفكر في الزواج. لا شيء غير العمل.

_ لا تهتمي ببني جلدتك.

_ آه، تريدين مني أن أتزوج فرنسيا.

_ أجل. على الأقل سيشفق عليك. ستجنين منه ثروة لا تقدر بثمن.

_ آه، يا ابنتي. تزوجت صديق أبيك. أحسن معاملتي ثم تغير حاله. صدقت، كان يرغب في التقرب منك. أنا أنتظر إطلاق سراح أخيك من السجن. سيلقنه درسا لن ينساه. سرق نصف الحوالة وذهب إلى حانة. يقول إنه يرغب في نسيان ما ألم به لما اقترن بي. كنت مخطئة حقا. لم أكن أعرف أنه يضمر لي الشر. أخوك يتوعده بالضرب المبرح. قلت له يكفيه هذا الضرب المبرح حتى يرعوي، وإن عاد إلى غيه.. آه، أخشى عليه من القتل، فأخوك الآن صار ذا شأن في السجن. إنه يفكر في أن يكون قاتلا مأجورا.

_ آه، يا ابنتي. ما كنت أخشاه وقع. أخوك قتل زوجي. أنا الآن حزينة جدا جدا. أبوك ينكل بي في الحي. يشتمني بأقذع الألقاب. أخوك هارب من العدالة. يقول معارفه إنه فر إلى فرنسا. لا تجيريه لأنه قتل حبيبي. إنه الآن ولد عاق. مالك لا تتحدثين إلى أمك التي ولدتك؟. الدنيا تغيرت. أنا أيضا لم أعد أطيق الحديث، لأنني لا أجني من ورائه إلا التعب، والطبيب صار يحذرني من مخاطر الكلام الكثير. إنني الآن أكتفي بالنظر إلى ما يحدث لي بحزن، وأنت هل اقتنصت زوجا يهتم بك؟.

النوايا الحسنة...

عن فكرة في قصة عزيز نيسين (بمناسبة تركيب المرجل).

_ أنا لا أعرفك سيدي.. هلا تذكرني باسمك ؟

_ أوه. أنسيتني يا رجل ؟ تعرفت إليك بمناسبة بناء المركب الرياضي..

_ آه، تذكرت. كنت جالسا جنبي. قلت لي آنذاك إنك من حزب المصافحة والسلام الدائمين.

_ أجل، أجل..

_ وأنا أيضا من حزب الشعب، أعني حزب المصافحة والسلام..

_ لا يهم انتماؤنا إلى هذا الحزب أو ذاك، فالأهم هو أن نخدم الشعب الذي ننتمي إليه.. بالمناسبة هلا تذكرني بأجندة هذا الحفل ؟

_ سندشن حمام السونا.. أعني الحمام الشمسي.. جاء هذا بناء على دراسة قام بها خبراء فرنسيون.. قالوا إننا الشعب الوحيد الذي يعاني البدانة.. لأننا نأكل كثيرا.

_ انظر إلى بطني (يتحسسها براحة يده)، إنها منتفخة..

_ وبطني، كيف تراها؟

_ هي أيضا منتفخة كبالون.. كل هذه القطعة الموسيقية..

_ إنها من لحمة الرأس.

_ هي من لحمة رأس إنسان.. قال لنا الخبراء الأمريكان إننا في يوم ما سنجد أن أغنامنا نفقت بفعل جشعنا وبطشنا بها..

_ ما يقول الخبراء صحيح.. تصور أنهم قالوا لنا إن يوم القيامة أزف. .وثبت أن دولة كذا تريد تدمير هذه الأرض بقنبلة بشرية..

_ ما يقول الخبراء يكون دوما صحيحا.. هم ضوؤنا الذي نهتدي به.

_ لا ينبغي لنا أن ننكر أنهم أصدقاؤنا في السراء والضراء.. كل هذه الإصبع.. مص رحيقها.

_ وأنت، ألا تأكل؟ هاك هذه القدم..

_ في الواقع نحن نخالف الأعراف الدولية، لأنها تحرم أكل الإنسان، فالعصر عصر حضارة وعلم.. ولكن يسمح لنا بأكلها في مثل هذه المناسبات.. فليكثر الله منها.

_ آه،ألا تؤمن أن الله يحبنا. لو كان يحب الفقراء لجعلهم ممثليه للشعب..

_ هاك هذا القلب..

_ ألا يزال ينبض بدماء الحياة؟

ضحك. .

_ لقد شبع موتا فكيف له أن ينبض؟ أنظر إلى أحد أصدقائنا.. أعني صاحب الشعر الأشقر.. إنه من ألمانيا.. هو سفير النوايا الحسنة.

_ وذاك الذي يقف خلفه؟

_ من له وجه فيل وبطن خرتيت؟

_ أجل.

_ هو أيضا سفير النوايا الحسنة.. دعك منه، فقد يسبب لنا مشاكل مع..

_ أهو من..؟

_ أجل. دعك منه وتلذذ من أطايب الرزق.. هاك هذه الكبد المشوية على نار هادئة.

_ أخشى أن تكون كبد مدخن..

_ بالمناسبة، ما أخبار الحديقة التي دشناها قبل عشرين سنة.

_ أتعني الحديقة البشرية؟ إنها تربي أجود أصناف البشر المخصصة للمأدبات الرسمية.. كل هذا الجزء من الكتف.. بالله عليك شاركني هذه اللذة.

يأكلان بنهم.

_ كيف هي معدتك الآن؟

_ هي كالطاحونة..

_ انظر إلى هذا الغريب.

_ أوه، ألا تعرفه؟

_ كلا.

_ هو مهندس حمام السونا. ألا ترى أن الحاضرين كلهم يبدون الاحترام له؟

_ يمكن لنا أن نشتريه.

_ ليبني لنا حماما في كل مدينة وقرية..

_ لم لا يتحقق هذا الحلم لأجل شعبنا المناضل.

_ أنت من أنصار تعميم الحمامات

_ وأي ضرر في هذا إذا كان يدر المال.

_ لينظف الشعب أوساخه.

_ أنت إذًا من أنصار المحافظة على البيئة.

_ أجل، أجل، كل هذه القطعة من فخذ فتاة دون العاشرة.

_ أنا الآن عرفت أن اكتفاءنا الذاتي من أجسادنا.. لأجل هذا أعدك أنني سابني مجزرة للحم البشري.. أغنامنا نفقت..

_ وأنا عازم على بناء مطعم للحم البشري.. اكتفاؤنا من أجسادنا.. شعارنا في الحياة.

_ نحن من أنصار الحفاظ على البيئة. الإنسان النظيف في البيئة النظيفة.

_ كل هذه العين.. تكاد تذوب في الصحن الساخن مرقه.

_ جيء بالطباخ من أستراليا.

_ وأين تقع هذه الأستراليا؟

_ يقال إنها في الطريق التي صل الرباط بالدار البيضاء.

_ كيف وجدت طعم العين؟

_ ذابت في اللسان.. لم تمسسها أسناني.. يا لروعة الطبخ الأسترالي

_ فلتعش العيون السود والبيض والشقر..

_ فلنستمع إلى سفير النوايا الحسنة.

سفير النوايا الحسنة يمتشق آلة الكلام.

(أيتها السيدات، أيها السادة ممثلو هذا الشعب العظيم المحترمون. إن شعوبنا فخورة اليوم بهذا اللقاء الأخوي لأننا شيدنا مركبا رياضيا وحماما للسونا، ومجزرة سرية للحم البشري، وحانة شعبية لترويج المنتوجات الأمريكية بأثمنة يقدر على دفعها العام والخاص. بالمناسبة فقد يتساءل كثير منا : ما الغاية من وراء هذا الحانة الشعبية إذا كان السكارى سيملأون الشوارع والأزقة بضجيجهم وصراخهم؟ الجواب بسيط للغاية. نسمي هذا بالدورة الغذائية. يشرب الرواد فيدفعون، وعندما يسكرون نقبض عليهم فيدفعون.. (تصفيق حاد) تتساءلون أيضا، ولكننا سنخسر إذا حشرناهم في السجون (ضحك). الجواب بسيط للغاية. نحشرهم حشرا، فمن نجا منهم حمدنا الله على سلامته، ومن اختنق أو تفحم جعلناه وقودا لقاطراتنا التي نفخر بانتمائها إلى عصر الأنوار (تصفيق حاد). أما بالنسبة إلى الاكتفاء الذاتي، فبشرى لشعوبنا المغلوبة على أمرها، وطوبى لأجيالنا الصاعدة والهابطة. سنربي النوع البشري الجديد في مركباتنا الرياضية، وننظفه في حمام السونا، ثم نجهز عليه في مجزرة السلام (تصفيق حاد). وهاكم دليلا على حسن نوايانا (أضواء مفرقعات في السماء).

يلقط قطعة من لحم بشري ويقوم بتعداد مزاياه المستقبلية :

...Vita a، vita k، vita h، vita g، vita d، vita e

والسلام عليكم.

بوجدور. 10 . 02 . 03.

عمو وين..؟

بمناسبة صدور أغنية بالعنوان عينه.

_ أين عمو؟

أجاب الولد الصغير الذي بدت عليه أمارات الخبث :

_ في السوق.

لم يذهب عمو إلى السوق. كان ينظر إلى غريمه ذي الجلباب المتسخ ؛ المبقع بزيت محرك السيارات أو زيت الزيتون (وهو يشتهي الخبز المغمس بالزيت)، من خصاص النافذة ويبتسم في خبث. يكبت الابتسامة الساخرة الخبيثة وكأنها الجمرة الخبيثة حتى لا تطيش، فيتردد صداها في أرجاء البيت. وعندها يسمعه غريمه فتحدث الطامة الكبرى : عراك بالأيدي والأقدام والأسلحة الفتاكة. كانت زوجه تراقب ملامحه وتغيرات مزاجه. بدا في البداية كئيبا ثم انفرجت أساريره، فهاجت وماجت إلى حين اختفاء حالو عن الأنظار. ودخل الولد الخبيث فاستقبله عمو ببشاشة لم تعهد فيه من قبل. رأى في ذلك فرصة لا تعوض كي يطلب من أبيه درهما. وهو ما حدث، فحقق بغيته دون عناء. وعمو كان أذكى منه ،إذ لما رأى أن ما لم يأخذه غريمه سيناله الولد الخبيث ، فارأى على سبيل صيانة مكاسبه أن يعالج أطماعه بعد أن يصفو ذهنه من مخلفات أزماته المالية. سأريك يا ولدي أنني عمو لا خالو.

.   .

_ ولدي؟

_ آه، نعم، عمو..

_ اجلس. ففغل صاغرا لا يلوي على شيء).

_ إنك تعرف يا بني أنني مريض.

_ أجل عمو.

_ وأنني لا أعمل، فكيف تطلب مني أن أعطيك درهما، وأنت تدري أن درهما وآخر يساويان اثنين، وأن جيبي مثقوب..

_ لأنني قلت لخالو إنك ذهبت إلى السوق.

_ هذا حسن، ستقول له دوما إن عمو في السوق.

_ أجل عمو. (يفكر مليا) عمو؟

_ نعم يا ولدي.

_ سأخبره بأنك تكذب عليه. سأقول له إذا سألني عنك إنك هنا في البيت تشاهد التلفزيون.

_ ولم تريد أن تفعل ذلك يا ابن عمو؟

_ لأنك تبخل علي.

_ آه منك يا ابن الجمرة الخبيثة (يفكر مليا) سيكون لك ما تريد).

يرن الهاتف في بيت عمو، فيهرع إليه الولد بخفه معهودة فيه. أبواه الآن يشاهدان مباراة كرة القدم وهي تدور رحاها بين فريق العراق وفريق الولايات المت...

_ آلو. من؟

_ أنا خالو.

_ آه، خالو. ماذا تريد ؟

_ أعمو بالبيت ؟

_ دعني أرى إن كان في البيت أم إنه ذهب إلى السوق (يبتسم أما أبواه فيكشران عن أنيابهما كاخ كاخ.) لا، إنه غير موجود.

_ وأين ذهب عمو ؟

_ إنه في أفغانستان.

_ وأين توجد أفغانستان ؟

_ في شارع مارستان.

_ ومارستان ؟

_ قبالة محطة مدريد الجوية.

_ محطة مدريد ؟

_ أجل، وهي لابتعد عن قاعدة باغرام إلا بأمتار قليلة.

_ باكرام؟

_ قبالة مقهى السفراء.

_ أقلت مقهى السفراء ؟

_ أجل، وهي لا توجد في اي مكان.

_ لا توجد. وأين أجدها يا ابن عمو اللعين؟

_ إنهما يكشران عن أنيابهما. إن أكلت أخبر الشرطة.

_ من هما ؟ (أبواه يهددانه).

_ من هما ؟

_ قلت إنهما يكشران عن أنيابهما .

_ آه ، أجل ، أعني مدريد وباكرام .

_ يا ابن عمو اللعين .

_ أجل ، خالو .

_ قل لعمو إن قبضت عليه جعلته بيتزا في مطعم إيطالي .

_ مطعم إيطالي ؟

_ هو الذي يوجد قبالة محطة الغابات .

_ غابة .

_ أجل ، هما الآن مستلقيان على السرير يضحكان على غبائي .

_ ماذا تعني ؟

_ عمو ولبوءته . هما في البيت ، أليس كذلك ؟

_ كلا . هما الآن في أفغانستان .

_ أفغانستان ؟

_ هي التي توجد في مارستان . .

يقبله أبوه عمو وين وينظر إليه في اعتزاز. هو ذا الشبل الذي سيقود العالم إلى الخراب .

بوجدور . 31 . 01 . 03 .

العدو.

سألت نفسي وأنا أنظر إلى العداء الذي جاوزني :

_ كيف ألحق به فأسبقه؟ إنه لا يسكن حارتنا، ولكن لأي سبب يجري هؤلاء الناس؟

كان العداء قد لحق بآخر قرب محطة بنزين. توقفا لحظة ليتنفسا الصعداء، لأنهما أرهقا نفسيهما كثيرا. ينبغي لهما أن يستردا بعض القوة. هذا نوع من ألاعيب العدائين. ثم استأنفا العدو.

اسأل نفسي مرة أخرى :

_ أيعدوان لأجل غرض ما؟ حتى يصلا في الوقت المحدد لبسط الموائد. هي إذا مأدبة أو صدقة يهبها غني من أغنياء المدينة الناس حتى يشيع بينهم أنه كريم لا يحفل بالمال. ماذا لو لحقت بهما، وبالآخرين الذين يجهدون أجسادهم، ثم تبين لي أنها مزحة أطلقها عابر سبيل. سيعيرني معارفي قائلين : ها هو أشعب الذي ضحك عليه العداؤون.

مر بي ثالث يمرق كالسهم. صرخت فيه :

_ تريث يا أخي قليلا لأسألك.

لم يكترث لي. سيلحق بهما. يستطيع تجاوز أي عداء فهو مفتول العضلات، قوي

البنية. أبصرت ذلك لأنه كان يرتدي صدرية بيضاء شفافة، كشفت عن ساعديه و كتفيه وأعلى صدره. لا أكتم سرا إذا قلت إنني شممت رائحة عرقه. أوف.. كانت رائحة مقرفه جدا. لا بأس، فهذا يعني أنه بذل مجهودا عظيما في العدو.

عداء يدنو مني.

_ وأنت، أيها العداء تريث قليلا لأسألك؟

توقف وكأنه رق لحالي. يبدو طيب القلب.

_ أخي، لماذا تجرون؟

_ أنا أجهل ما الذي دعاني إلى الجري. كنت جالسا في مقهى الليل والنهار أحتسي قهوة سوداء، وأنا لا أدري لماذا أفضل شرب القهوة السوداء. كنت مشغولا بفكرة البحث عن عمل حتى أستطيع إطعام أمي وخطيبتي، فإذا بأولئك الذين سبقوني يمرون بي وهم يلهثون. فقلت في نفسي إنهم ولا شك يجرون لأجل نيل شيء. لن أخسر شيئا، فلأتوكل على الله. وأنت، أدعوك إلى قبول دعوتي وصداقتي، فلنجر معا.

وهكذا عدونا جنبا إلى جنب. لا أحد منا يضمر الشر لصاحبه. لحقنا بأصدقائنا العدائين. كنا جميعا متعبين، ولهذا عدونا صفا مرصوصا حتى ولجنا بوابة مصطنعة، فإذا بنا لاهثين في ساحة واسعة تتخللها أشجار وقامات آدمية.

بهتنا جميعا لما قرأنا لافتة كتب عليها (مستشفى الأمراض العصرية للعدائين).

بوجدور، 28. 12. 2000.

فقاقيع.

إلى روح الشاعر أحمد المجاطي.

أقيم حفل تأبين لشاعر مغمور،فانبرى أديبان كانا من أعز أصدقائه يتحدثان عن تراثه الأدبي.

_ والله، لا يسعنا الوقت في هذه الجلسة للحديث عن شخصه، حتى لو عشنا الدهر كله. كان مغمورا وعاشقا للعزلة. إنها فلسفته، ولكنه كان شاعرا.

التفت إليه صديقه :

_ أتذكر أنه كان إذا دخل قاعة الدرس احمر وجهه فركبه الخجل؟

_ بلى. ينزع ربطة عنقه. أكانت سوداء؟

_ كانت حمراء.

_ بل، سوداء.

_ حمراء.

_ لنقل إنها كانت حمراء (تضج القاعة بالضحك). بعد دقائق معدودات ينزع بذلته. العرق يتصبب من جبينه، وينظر إلى ساعته، ثم يودعنا قائلا : مع السلامة.

_ كلا. كان يودعنا قائلا : أعزائي، إلى لقاء قريب. (ضحك).

_ أتخونني الذاكرة؟ كلا، كان يقول لنا : مع السلامة.

_ أو تكذبني يا عزيزي.؟

_ أو تذكر أنه كان يستقل الحافلة حتى الشارع الرئيسي، ثم يدخل حانة النهضة؟ (1)

_ نحن طلبته نلاحقه حتى الحانة.

_ فيذهب خجله إلى غير رجعة.

_ يحدثنا عن الشعر والشعراء.. كان عاشقا متيما بالشعر.

_ والإنسان والتاريخ.

_ أو تذكر أنه كان مدخنا شرها؟

_ كان يعشق سيجارة ماركيز. (2)

_ كلا. كان يعشق السيجار. يقبله ثم يوقد فيه النار.

_ يكتفي بتدخين نصف منه ثم يخمد شعلته.

_ كلا. كان يشرب دخانه حتى النهاية.

_ أو تكذبني؟. كان يشطره نصفين. يدخن نصفه الأول ثم يطفئه، وهكذا دواليك.

_ كلا، عزيزي. كيف نخون صديقنا الذي نذر حياته للشعر والحقيقة؟

تضج القاعة بالضحك.

وانتهى التأبين بأن بسطوا أياديهم متضرعين إلى الله تعالى..

بوجدور. 1997.

من لا يحب الفقر؟

_ الفقر مثلنا.

_ أنا أعرف أنك لا تحب الفقر . لماذا ؟ ألأنه بشع ؟ أو لأنه أكثر بشاعة من بشاعة ضفدع بري ؟ أنا أستطيع إقناعك بخطأ فكرتك . أعني أنك كونت عنه فكرة تافهة . أنظر حواليك ، فماذا ترى ؟ ألا ترى الفقر يمشي على قدميه . صار إنسانا مثلنا ، يأكل ويشرب ويحب الحياة ، ويقول في نفسه : ما أجملها . بل إن الحب قد أخذ بتلابيبه حتى كاد يجن . رأيته أمس مسترقا النظر إلى نافذة مشرعة . كانت البنت تبادله النظرات المريبة . هللت له فهلل لها . ابتسما ثم ضحكا ، وتواعدا على اللقاء . سيكون لقاء عاصفا مرعدا . . فمن لا يحب الفقر ؟

_ اليد العاملة.

_ أهلا وسهلا بصديقي الغني . كيف هي أحوالك المالية ؟

_ أو تحسدني ؟ لم تسأل ؟

_ أنا صديقك الوفي . هذا ما كان يصدر عنك أيام الدراسة .

_ أيام الدراسة ؟ ومتى عرفتك أيها الغريب ؟

_ أنسيتني أيها الغني المشهور بماله..؟

_ أنا لا أنسى الأصدقاء الأوفياء، ولكنك لست واحدا منهم.

_ لأنني فقير. أليس كذلك أيها الغني؟

_ كلا. ليس هذا ما أعنيه أيها الفقير. أنت لن تعطيني شيئا حتى أعطيك شيئا. أنا أومن بالعطاء المتبادل.

_ شكرا لك أيها الغني الأحمق الذي لا يدري أنه يحتاج إلي لأنني أدعى اليد العاملة.

_ اليد العاملة؟

_ غدا سأضرب عن العمل، فأرجو ألا تصاب بالجنون.

_ سعادة الفقراء.

_ ألا تدري ما حدث لي؟

_ ماذا حدث؟

_ الأرق..

_ ما له؟

_ صار يلعب بي.

_ كلامك هذا يثير ضحكي. الأرق؟ فلنحاربه.

_ وكيف لي أن أحاربه وهو يقض مضجعي أيها الأبله؟

_ لم لا تكون فقيرا؟ أعني لم لا تتخيل أنك فقير؟

_ فقير؟ أو يأرق الفقير؟

_ كلا يا عزيزي. لا يوجد سبب يدعوه إلى ذلك. أنا واثق أنك ستفقد بعض الأرطال من هذا الوزن الثقيل، ولكنك ستصاب حتما بلوثة السعادة، وهي سعادة شبيهة بما يحس به البقر أو الحمير، أكلة الحشائش والبرسيم. فمن لا يحب الفقر؟ أنتم الأغنياء لا تشغلون بالكم بما يحدث للفقراء. إنكم تقبعون في قمرة القيادة بأقنعة واقية من داء العوز. لا يعوزكم إلا النظر في..

_ أنقذني يا صديقي قبل فوات الأوان.

_ ها أنتم أخيرا تعترفون بحقنا في مداواة جراحكم.

_ عجل يا عزيزي، عجل قبل فوات الأوان.

_ لم يفت الأوان بعد. سنصلح ما أفسده الدهر. فلنتحد جميعا ضد الحاجة والأرق.

_ أنا شاكر لك هذا الفضل. فلينقذك الله من براثن الفقر والعوز.

_ تؤخذ المؤامرات على محمل الجد.

_ أهلا وسهلا بالاتحاد ضد الحاجة والأرق (يشبكان أيديهما) . فليعش الاتحاد، اتحادنا ضد المؤامرات التي تحاك في الظلام، وهي لا محالة دسائس خارجية يراد بها النيل من قوتنا وبأسنا.

_ المؤامرات التي تسعى إلى قصم ظهورنا (يضربان يدا بيد) .

_ عجل، عجل.

_ فلنبدأ. لا شك أنك أكلت ما لم يأكله الدهر. أليس كذلك؟

_ بلى.

_ هذه بداية موفقة. يقال عادة : قل الحقيقة ولو كانت مرة.

_ فليسامحني الله إن أخطأت.

_ يكون الاعتراف أحيانا أقسى من الموت، ولكنه شر لا بد منه. ألك رغبة في أن تفقد بعض الأرطال؟

_ أجل. أجل.

_ ندعو هذا بالحمية الخاصة التي تخدم العامة.

_ أنا رهن إشارتك.

_ كل شيء بأوان.

_ عجل. عجل.

_ ما باليد حيلة كما يقال، لأنك الداء والدواء.

_ فما العمل؟

_ أيسعدك أن تكون حمارا، حاشا لله، أو بقرة. فلنخفف وقع هذه الصدمة على قلبك. أيغيضك أن تكون خروفا وديعا؟

_ كلا. كلا. ما هذا الهراء؟ أو تظن أنني سأفقد كرامتي بهذا اليسر.

_ ستقتات من زبد القمامة، أو نفايات الأرصفة.

_ لم تعفر وجهي في التراب؟ أتهون عليك كرامتي؟

_ فليكن ذلك صديقي لأنك الداء والدواء.

_ فليكن ذلك إن كان فيه قضاء حاجتي.

_ هي سعادة الفقراء. فلا يأخذنك الحمق مما قد تصاب به، فتصب علي جام غضبك.

_ أأنا من يفعل ذلك؟ كلا.

_ ستمرض ولن تجد حتى أحقر دواء..

_ أو هناك ما هو أحقر من الغنى؟ واصل..

_ فإن لم تجد الدواء وأنت مريض بعت حاجاتك التي تعزها بأبخس الأثمان، وإن عز عليك فعل ذلك أصبت بلوثة عقلية. ولا شك أنك ستمزق ثيابك وتبيت في العراء.

_ لا باس من ذلك كله. كل شيء يهون في سبيل السعادة التي نفتقدها.

_ تصير شيخا تملأ قلبه الكوارث.. منبوذا لا يشفق عليه حتى أبناؤه. يا للمصيبة.

_ لن يثبط هذا عزائمي.

_ فإذا فاضت روحك، لن تجد من يقرأ عليك السلام الأبدي

_ لن يثنيني هذا عن بلوغ مرامي.

_ ولكنك لم تصل إلى أي شيء.

_ هذا ما أسعى إليه.

_ ألا تقر معي أن الفقر إنسان مثلنا؟

_ إنسان يوزع النار على الناس، يستضيئون بها. من قال إن الفقر بشع فهو ناكر الجميل.

بوجدور. 03. 08. 01.

شكرا لك.. شكرا لكم.

_ أنا ممتن لك وللجمعية التي كنت رائد تأسيسها . .

_ شكرا لك .

- صارت شهيرة بأعمالها الخيرية . أنا ممتن لك كثيرا . .

- إنما الأعمال بالنيات . شكرا لك . .

- أنا أعرف أنك أسست خمسين جمعية .

- سيذكر التاريخ هذا العمل الجبار .

- التاريخ لا ينسى .

- هذا صحيح . فالتاريخ لا ينسى .

- ينكر الناس عليك أنك فعلت خيرا بهم .

- هم هكذا ، جاحدون دوما .

- أنا ممتن لك كثيرا . أنقذت حياتي من موت محقق .

- فقد كدت تفلس لولا جمعية (المتخلى عنهم)

- بارك الله فيك . كنت نعم الصديق .

- رأيت أنك تهوي إلى الحضيض فقلت : لننقذ هذا المفلس من الهاوية.

- أنا ممتن لك يا أعز صديق.

- شكرا لك.

- سأرد لك الجميل في يوم ما. أنا أسعى إلى تأسيس جمعية تعنى بأمراض الكبد والكلى والقلب.

- هذه أمراض تجلب الحظ السعيد في عالم مليء بالأزمات. بارك الله خطتك. ستجعل منك أقوى رجل في مجتمعنا. أنا في الواقع أغبطك.

- إن أردت انضم إلى جمعيتي. بالرجال تنمو الأمم و..

- هذا مستحيل، فأنا أدير من خلف الستار خمسين جمعية. لا أنام إلا أربع ساعات..

- أراد أحد الأغنياء أن يرأس الجمعية فقلت له : لن يتحمل قلبك أعباءها.

- هؤلاء يستهينون بأعمالنا، فإذا غرقوا في بحر العمل قضوا بقية حيوا تهم في مستشفى لأمراض القلب أو المعدة..

- شكرا لك على تنوير عقلي، فأنا ممتن لأفكارك كثيرا.

- لا شكر على واجب، ومع هذا لابد أن أقول لك شكرا.. شكرا..

- بالمناسبة، ماذا ترى في أن تؤسس زوجي جمعية تعنى بالمتقاعدين الجدد..

- يبدو أن زوجك مهتمة بشؤون المجتمع.

- هذا صحيح. في كل حين تذكر لي أنها كانت تهتم بتربية الدجاج والأرانب.

- بارك الله أعمالها. لم لا يتحقق هذا؟ ينبغي لك أن تشجعها وتنير سبيلها.

- هذا ما أقوم به. بالمناسبة، ماذا ترى في أن تؤسس ابنتي جمعية تعنى بالفتاة الجديدة.

- هذا تحرير للمرأة من العبودية.

– دعني أسألك ، ماذا تعني العبودية ؟

– والله ، هي كلمة عصية على الفهم . تفهم بحسب الظروف . .

– هذا صحيح . شكرا لك ، لأنك تنير طريقي المظلم .

– أخشى أن يغضب علينا مجتمعنا . .

– لا تخش شيئا . فهو كريم ومتسامح . .

– أرجو أن يدوم هذا طويلا .

– بالمناسبة ، ابني أيضا يريد أن يؤسس جمعية تهتم بالأمراض الباطنية . . أما خالتي التي حسدت عائلتي فقد أصرت على تأسيس . . .

الأدب متروك للرجال.

إذا تفحصنا سجلات النساء الكاتبات أو الشاعرات وجدنا قلة منهن من صمدن وآثرن العزلة بعيدا عن سجون الرجال ومقصوراتهم المخملية، بعيدا عن عالم هارون الرشيد والهارونات الأخرى التي حباها الله بالفرح الدائم. فمن من النساء الكاتبات من لا تتوق إلى نشر كل تخريفاتها وثرثرتها وأحلامها الغبية؟. حتى الرجال يعجبهم أن ينشروا احلامهم المتصابية في سطوح عارية. هكذا هو حال الأدباء والأديبات الذين يرغبون في إثراء أدبنا الرديء. كل طرف يكيد للآخر. يود لو يقتله حتى يخلو له المكان. الأدب مكايد ومصايد وحفر وإيقاع بالآخر وقتل وحلبة ملاكمة. لا تكاد كاتبة تصل هرم الشهرة حتى نقول ساخرين : وراءها رجل كد وتعب لتنعم بالراحة والسكينة، لتكتب آمنة مطمئنة ؛ لأن الكتاب الرجال يسكرون ساعتها في الحانات أو في البيوت الأدبية، لأنهم أرجأوا عملية الكتابة إلى الغد،حتى يصفو الجو الملبد بالغيوم، وينقشع الضباب. وهذا الغد يأتي بعد ألف سنة. الرجال نائمون فطوبى للنساء الكاتبات، لقد ركبوا القطارات السريعة فجالوا في الآفاق الشاسعة للأدب. الأدب متروك للنساء البريئات. أولائك الرجال كتبوا أعظم الأعمال، أما النساء فقد كن رهن إشارتهم وأوامرهم، يقمن بأعمال النسخ على أوراق البردي أو جلد الغزال أو الآلات الكاتبة والحواسيب. عملن بجد وتفان على أن ينعم الرجال بالسكينة حتى ··دفق الإلهام من آذانهم وعيونهم

ومعداتهم، حتى يرتوي نسغ الأرض وينهل من أفكارهم الجهنمية. ولهذا كان أكثر العظماء مجانين سعوا إلى تدمير أنفسهم والعالم وحرق المدن والدول، أما النساء فكن يقمن بأعمال الخياطة وغسل الأواني وصنع الأكلات المرغبة في الجنس وتربية الدواجن والإنجاب. كن يثقلن كاهل الأرض بأطفال أغبياء هم الآن منشغلون بالتمارين المدرسية أو البحث عن عمل وقرع أبواب الحكومات المتعاقبة وإزعاج المسؤولين الرجال الذين يجدون ويكدون لإطعامنا جميعا بالموت الزؤام. إنهن ينجبن أجيالا لا تفقه شيئا في باب التسيير الجماعي للتحالفات الدولية، أو في باب البحث والتنقيب عن الذهب الأسود. هي أجيال خاوية أو جذوع بلا أغصان. هياكل عظمية تصلح لأن تكون حطبا لنار يتدفأ بها الرجال الكتاب الذين يكتبون عن الأزمات والقضايا الشائكة. الكتاب الرجال قوامون على النساء الكاتبات. إن نشرنا كتيبا لكاتبة وجب علينا إن ننشر مائة كتاب للرجل. فهل يمكن للنساء أن يجدن الحياة رائعة بدون رجل؟ هذا الثور الذي يكتب عن فحولته التي تسخر منها النساء المتوحشات. لم يعد قادرا على إفحام امرأة واحدة. يتباكى في الندوات والمحافل الثقافية على العهد الذي صال فيه وجال بدون رقابة نسوية. النساء الآن أفقدن الحياة عذوبتها ومعناها، لأنهن جعلن منها ورقة تلعب بها الرياح. أجل،» الرجال يتحملون عناء ملء الجيوب أو إعلان الحروب، وفي أحسن الأحوال يملون الرسائل على كاتباتهم. الأدب متروك للرجل شئنا أم أبينا «. يحدث هذا عندما تريد المرأة الكيد للرجل ؛ لتوقع به أو تضحك عليه، فتجعل منه قشة على ظهر حمار أجرب. تتصنع الأدب لتقضي مآربها وأغراضها الشخصية. ولهذا لا عيب في أنها صارت تحتل المواقع الإيجابية في الدول الديموقراطية، وبلادنا واحدة منها شئنا أم أبينا. ولا عيب في أن إعلانات خوض الحروب تكتبها النساء. ولنضف إلى ذلك الأغاني التي ترغب الرجال في النساء، مع العلم أن الرجل هو الكاتب والمخرج والمتنج والمصور... الأدب متروك _ أيها النساء _ للرجل، للتنفيس عن نكباته التي تأتيه عادة من غيرة النساء المحبات للحلي والماس والذهب والشهرة، وهذا الحب يأتيهن من قراءة أدب الرجل البغيض.

انظروا مثلا إلى هذه الشاعرة التي قالت :

(أنا مثل ريشة دجاجة في يد حبيبي)

لقد طالعنا وجهها في التلفاز الذي يديره الرجال. تحدث عن ريشة دجاجتها رجال أحاطوا بها من كل جانب، حتى إنها أثارت حفيظة أمي التي علقت قائلة: أما كان عليها أن تنشغل بصنع غذاء شهي لزوجها؟ وأنا أضيف بنبرة المتصابي : لو لم تشبة نفسها بريشة الدجاجة، لو شبهتها بأظفار المنية أو لبوءة لأثارت الرعب في أدبنا نحن الرجال، حتى تكون قارئة جيدة لأعمال الرجل الذي ينبغي لنا نحن الأدباء فصل رأسه عن بدنه.

بوجدور. 19 . 01 . 03.

هامش

_ ينظر في « النساء يكتبن أحسن » . ترجمة محمد صوف



قصص لأبنائي حتى يناموا.

(مهدئا ت لمحاربة الأرق).

1 - القطار في محطة الجنون.

كنت قد حصلت على قدر لا بأس به من العلم، يؤهلني لقراءة الجرائد وبعض الكتب التي أصادفها معروضة على الأرصفة، فأشتريها بدراهم معدودات. ولكن لم لم يؤهلني هذا للبحث عن عمل؟ شغل هذا فكري مدة طويلة. ما إن أدخل مكتبا أو إدارة حتى يأخذ بدني في الارتعاش، ويتصبب عرقا يبلل ثيابي، فتغيب عني لباقة التعبير. ولا أجد الكلمات المناسبة لتدارك مثل هذه المواقف الحرجة، وأكتفي بالقول :(المعذرة،لقد أخطأت الطريق). يودعني موظف بئيس بابتسامة غامضة،فأنصرف مكلوما. ولكن بدا لي أنني أفلحت، إذ حدث أن هجعت في فراشي، ناظرا إلى السقف، متأملا ما يحدث في كل لحظة. لم أكن أرتعش أو يتصبب مني عرق غزير. كنت هادئا، محلقا في ملكوت الخيال، وقد صرت مدير مؤسسة تصدر الذهب إلى بقاع العالم، ورئيس شركة للبن. ما إن تقلدت منصبي ذاك حتى ارتفعت أسعاره، فنلت وسام جالب الحظ السعيد. وأنا الآن محظوظ جدا جدا. أنجز أعمالا عظيمة في عالم شاسع لا دخل فيه لأرباب العمل القساة.

نظرت إلى أبنائي. لم يناموا بعد. وقد راعني أن ألمح علامات التأفف من هذه الشخصية التي ركبت قطارا يؤدي لا محالة إلى محطة الجنون.

2- النملة والصرار.

بادرتني النملة قائلة :

_ لم أنت كئيب ؟

قلت في أسى :

_ عاهدت أبنائي أن أقف على القمر ، وبما أنني لم أصل بعد ، فهذا يحزنني كثيرا .

_ ولم تشغل بالك بالقمر وهو بعيد ؟ أتريد أن تعيش هكذا منتظرا أملا لن يتحقق . وأبناؤك من يعولهم ؟

_ كنت أقول في نفسي إذا وقفت على سطح القمر نصبت نفسي سلطانا عليه .

_ هذا لن يعولهم . هم يريدون أكلا وشرابا ، فهيا معي . .

تبعتها وأنا أزحف على أربع . تسرع فأسرع ، وقد تدور حول نفسها ثم تحشر رأسها في ثقب بالأرض ، فأفعل مثلها . الحق أن هذا أتعبني . لم نعثر على أي طعام ، وقد أرجعت هذا الفشل إلى أن الناس صاروا يأكلون حتى مخلفات طعامهم . ولهذا عزمت أن أترك صحبتها ، وأهرع إلى فراشي آملا أن أنال قسطا من الراحة على سطح القمر .

ولمحت الحيرة في عيون أبنائي .لم يكونوا راضين عما أنجزه من أعمال سخيفة .

3- ضوء القمر يشبه ضوء الشمس.

أنا الآن على سطح القمر.

أنظر إلى تحت، فألمح بيتي وأبنائي الذين اعتلوا سطحه يتطلعون إلى السماء ; إلي ويشيرون بأصابعهم : إنه هو . إنه هو . أبي. أبي. لقد وصل. حقق حلمه وحلمنا. حتى النملة تجشمت عناء الوقوف على قائمتيها الخلفيتين، وأمالت رأسها إلى خلف فكاد عنقها (وهو رقيق جدا) ينكسر. ولو انكسر لسمعت صوته. كنت قريبا منهم جميعا، رغم أنني على سطح القمر ; قريبا من الحافة التي استقرت الأرض تحتها مباشرة. وكنت أسمع توسل النملة إلي أن امدد يدك أو أدل حبلا حتى أتسلقه فأصل إليك، وأجيبها بصوت مرتفع : أعلمت الآن لم أنا كئيب؟.

ملأت حقيبتين بضوء القمر، واحدة لأبنائي وأخرى للنملة البئيسة. طوحت بهما في الهواء ثم ألقيت بهما إلى الأرض.

وها هو صوت أبنائي يصلني واضحا :

_ أبي، أبي. .ابحث عن الذهب.

_ وضوء القمر، أليس ذهبا؟

_ إنه مثل ضوء الشمس، وهو عندنا بغير حساب.

_ واحسرتاه على تعبي، ضوء القمر هو عينه ضوء الشمس. . واحسرتاه. !

4- سطح الماء.. سطح الأرض.

_ وجدتها.. وجدتها.

صاح ابني:

_ أجننت؟ ماذا وجدت؟

_ هذه صيحة أطلقها قبل الميلاد فيلسوف يوناني.

_ فماذا وجد؟

_ كان يستحم في حمام.. ينظف بدنه مما علق به من أوساخ.. فراعه أن الأشياء تطفو على سطح الماء..كان أمامه سطل فيه ماء وقد وضع عليه لوحا لم ينزل إلى أسفل..

_ وأي عجب في هذا؟

_ حصل هذا والإنسان في طور تعلم التفكير..

_ الأشياء التي تطفو على سطح الماء كانت كذلك من قبل ومن بعد..فأي عجب في هذا؟

_ هذا صحيح. لم يكن المرء يدرك أن له عقلا يستطيع به أن يفعل الأعاجيب.. كان غبيا.

_ أتراه اليوم ذكيا؟

_ كلا. لأنه اليوم يفعل الأعاجيب، ولكن لا أحد يصدقه.. وهذه مشكلة تطفو على سطح الأرض وتنتظر من يكتشفها.

5- من يكتب التاريخ؟.

يحدث أن يسألني أبنائي عن التاريخ. هل هو إنسان يأكل ويشرب وينام ويستيقظ باكرا كما نفعل كل صباح؟ وهل يحس فيبكي أو يضحك؟ ومن زوجه..؟ لهذه الأسئلة أوجدت القصة التالية:

في يوم ما كانت النملة تعمل كل يوم، تكاد تجن بالذهاب والإياب، قاطعة آلاف الأمتار، وهي لا تبرح مسافة قصيرة. كان بيتها في حديقة العمارة التي تعالت إلى السماء.

كان التاريخ رجلا شابا متطلعا إلى الحياة، يسكن الطابق الأول. يحب دوما أن يدون ما يراه ويسمعه ويحسه. هو أيضا يكاد يجن بالطوفان في بقاع البلاد، محولا الأحداث إلى كلمات وجمل وعبارات أخاذة. أحيانا يكل فيود لو يتخلى عن هذه المهمة، ولكنه يعاود نشاطه متناسيا ما يمر بفكره من أفكار عابثة تريد جره إلى باحة الدخول. وهو لا محالة قد انتبه إلى النملة التي تخزن طعامها في ثقب بالأرض، قريبا من البوابة. صحيح أن العشب يكاد يخفيها، ولكنها لن تخفى عن طفل صغير مغرم بتدمير الأشياء الصغيرة، أو الصغيرة جدا جدا.

والآن _ وهذا لم يكن منتظرا _ فقد مرق من الباب ابنه. بدا أن أحدا ما يتبعه للإمساك به، ولأن هذا الأخير تأخر عن الوصول إليه، فقد دخل الحديقة يمشي مسرعا

هنا وهناك. كانت النملة تتطلع إليه في حذر شديد، قبل أن تنغرز في التراب المبلل تحت قدميه.

هنا بدا التاريخ مرتبكا، فالقاتل ابنه، والقتيل نملة لا حول لها ولا قوة.

وأنتم ألا تصدقون أنه إنسان يأكل ويشرب ويحس وينام؟. وإذا نام تكون مصيبة لن يطفئ لهبها إلا القوم المسالمون.

6- لي فيها مآرب شتى.

عزم السيد محمد الذي كان فقيرا (والفقر ليس عيبا يا السي محمد) أن يبني بيتا. جمع أعواد التبن الرقيقة من حقول حصد أهلها زرعها. واشترى قصبا وأغصان أشجار تقيم أود السقف، ثم إنه نهض باكرا قبل أن تبزغ الشمس، فحفر حفرة خلط فيها التبن بالتراب والماء، وعجنها عجنا بقدميه الحافيتين. أقام جدران البيت، فحام حولها يتفقدها بعين خبيرة، فهو على أي حال بناء بيوت. ولكن سرعان ما تجهم وجهه، لما أنزل الأغصان على السقف، إذ وجد أنه يلزمه غصن واحد ليكتمل النصاب. أعياه فكره، وهو يباعد بين الأغصان ولا يسره أن يأتي يوم فيهوي سقف بيته، ففي الشتاء تكثر النوائب. وجد أنه يلزمه غصن واحد. كان السي محمود بائع الفحم (وبيع الفحم ليس عيبا يا السي محمود) ينظر إلى صديقه بناء البيوت ضاحكا، حتى آلمته معدته (ولهذا هو يزور بين الفينة والأخرى طبيب المعدة ليفحصها ويقول له كلاما حسنا، ولكن الألم يعاوده فيغتم) . جاءه حاملا غصنا طويلا، صلبا، وذهب إلى حال سبيله فرحا بما أنجز، وقد خفت آلام معدته.

في كل يوم يأتيه السي محمود ليشير إلى خشبته قائلا :

_ خشبتي زينت البيت، لولاها ما استقام حاله.. ها ها ها..

ولأنه من طينة الرجال الذين يغضبون لأتفه الأسباب، فقد صعد سطح البيت حاملا

فأسا، ينقب عن الغصن، حتى إذا استله من تحت القصب والطين عرجّ به على صاحبه.

_ هاك غصنك.. بيتي مثقوب.. أنام فيه مع أولادي، وأرى من فراشي السماء والنجوم والكواكب.. ولي فيها مآرب شتى.

7- عنترة من هذا الزمان.

جاء مقدم الحومة مهرولا نحو جماعة من الناس.

_ أيها الناس.. من رأى منكم عنترة فليخبر الشرطة؟.

_ ولكن، ماذا فعل عنترة حتى تسعون للقبض عليه؟

_ إذا فأنت لا تقرأ الصحف والجرائد التي نشرت أخبار جرائمه وهي خطايا يندى لها الجبين عرقا. قتل عبلة زوجه، وأباها مالكا، وسرق إبله..

_ هذه مؤامرة دنيئة تسعى للنيل من شجاعته وإبائه وكرمه..

صاح رجل فجأة:

_ ولكن أيها الناس، ما دخل عنترة في ما حصل؟ عنترة ليس من هذا الزمان.. عنترة من زمان ولى..

زعق فيه المقدم:

_ إنك تبث البلبلة، فاحذر العاقبة..

_ عنترة عاش قبل ألف وأربعمائة سنة أيها الناس..

_ عنترة بيننا يسفك الدماء، وأنت تكذب ما تنشره الصحف.

_ عنترة مات وشبع موتا.

_ أيها الناس احذروا البلبلة.. هذا مدسوس بيننا لزرع بذور الشقاق..اغرب عن وجهي أيها اللعين.. ولكن قبل أن تصدع بالأمر تعال أتفحص وجهك.

دنا منه الرجل مرتعبا. قرّب عينيه من قسمات محياه. هناك شبه بينه وعنترة. كان مبتهجا لهذا الاكتشاف وهو يمسك بتلابيبه ويصيح في قرص الهاتف الخلوي : هنا مقدم الحومة.. الشرطة.. نعم سيدي.. أنا الآن أمسك بالمجرم عنترة.. لا تتأخروا.. نعم سيدي.. لن يفلت منا هذه المرة..

كان الرجل يقاوم قبضة المقدم، وقد رأى بأم عينيه كيف أن الجماعة تفرق شملها دون أن تأبه له.

8- الناس يشبهو ن الرسوم المتحركة.

كان يا ما كان.

في زمان مضى، غاب عنا، وهو الآن غريب عنا بقدر غربتنا نحن عنه. لا نمسك بسوى أذكاره الهلامية في رؤوسنا الخربة التي نخرها الهم والخوف. مم؟ من لا شيء. وهذه غربة أغرب من غربتنا نحن عن أنفسنا.

كان يا ما كان.

الرجل ذو الشارب الكبير، الفاحم السواد الذي ينساب على جانبي شفتيه الغليظتين، ما يفعل بهما؟ أيأكل بهما؟ أيتكلم بهما؟ وأي أكل يأكله؟ وأي كلام ينثره بين الناس؟. لا أحد رآه يأكل، أو يتكلم. يمشي في الحارة، والشارع كالشجرة السامقة، بجثة لا يدري أحد كيف هي قوية وصلبة المراس، مفتول العضلات، يبرز صدرا عظيما. أحيانا يطير فيحلق سابحا في الفضاء، محملقا في سطوح البيوت المكشوفة، كاشفا عن أدرانها. ولكنه لا يحدث أحدا بما رأى. وهذا جلب له الاحترام والتقدير. يراه الأطفال فيعجبون بشاربيه اللذين تطيّرهما الريح الخداعة، فيرتفعان إلى أعلى راسمين خطين أسودين باتجاه عينيه. كان المشهد رائعا، مثيرا، ولهذا هرع الأطفال يحلقون منبت الشوارب عسى أن تثمر شعرا كثيفا.

كان الناس يقرفصون أمام بيوتهم، أو يصعدون السطوح آملين أن يفوزوا بمرأى

الشاربين العجيبين.

لعل هذا، كان يثير حفيظة النساء، لأنهن لم يعدن موضع اهتمام. كان الرجال في شغل عنهن، يحلقون منبت الشوارب عسى أن... ......

9- الكابوس.

دخل البيت مهموما، لأن رب العمل طرده شر طردة. زعق في وجهه، وقال له كلاما يندى له الجبين عرقا، من قبيل.. ومن قبيل.. ولهذا دخل وهو مشوش البال. أينتحر أم ينتقم لشرفه المهدور؟. نام قليلا، واستفاق مذعورا من كابوس، رأى فيه نفسه حاملا مدية وقد أجهز على رب عمله. لم يقل له كلاما يندى له الجبين عرقا.. من قبيل.. أو من قبيل.. أجهز عليه بطعنة نالت منه، فسقط مضرجا بدمائه. لم تكن دماء حمرا، كان لها لون السواد. لم يتبدد خوفه إلا عندما دخلت عليه زوجه حاملة صينية الشاي. كان للشاي طعم الثأر. وقد أسر لزوجه ما حدث مع رب عمله. لم يبد عليها أي حزن أو هم. قالت له:

_ ماذا ترى في ذلك؟ أتسكت عن ضيمك فتنكفئ على وجهك عابسا، كاظما غيظك. تبا لك من رجل يشتري الدنيا بالذل.. قم إليه ونفذ كابوسك.

10- عالم ليس لنا.

ها هي البنت الصغيرة تهش فرحة لمرأى أبيها وهو يسر لها أنه ابتاع لأجلها هدية لا تقدر بثمن.

كانت ترى جهازا عجيبا، مضاء بنور داخلي يخطف الأبصار. تنقر هنا وهناك، وتكتب جملا.. جملا فقط، فتعبر بقاع العالم. هذه الصين وتلك أمريكا، وهذه دول لا تعرف أين توجد ولم وجدت. لم تعد ترى نور الشارع إلا لماما، إذا ألحت عليها أمها إلحاحا فاصطحبتها إلى السوق. صارت تعشق النور الذي يأتيها من بقاع العالم، يضيء لها طرقا لا عهد لها بها.. طرقا كانت تجهل مسالكها .اغتم الأب لمرأى ابنته وهي تزداد هزالا. لم تعد تأكل إلا لماما، ولم تعد تنام إلا لماما. ما بها؟ صارت تجيد النقر على الأزرار بدقة متناهية، ترسل جملا وتقرأ أخرى، وتنقب في نفايات العالم عسى أن تعثر على بقايا طعام من الصور والكلمات العذبة المرتقة بالحب الكاذب. كان جسدها ينخره الهزال شيئا فشيئا، ومع هذا تصر على أنها ستجد في يوم ما الكلمات الصادقة.

لا أحد يستحم في النهر مرتين. قال أبوها يائسا.

أمها لم تفهم شيئا، ولكنها عزمت أن تستعيد ابنتها التي تكاد تجن.

ذات ليلة بدأت كلامها متوجسة:

كان يا ما كان

كان أمير يبحث عن زوج، يكون وجهها أبيض وشعرها طويلا يصل موطئ قدميها..

كانت عينا البنت ترمقان الأم بانتباه شديد..

وتابعت كلامها حتى الصباح.

11- من يحكم الغابة؟.

في الآونة الأخيرة انصب تفكير الحكيم على أحوال الغابة. ولهذا صار يجهد نفسه في البحث عن دواء ناجع للفوضى التي نتجت عن العراك بين الحيوانات. من يحكم الغابة؟.

قال إن الفيل أهل لهذا المنصب، ثم بدا له أنه سيرتكب خطأ لن يصلح أبدا، فالفيل ضخم الجثة، وهو لهذا السبب لن يستطيع الدفاع عن نفسه، فكيف يقدر على درء أخطار قد تأتيه من أحقر الحيوانات.

قال إن للأسد سطوة لا تقدر بثمن، فهو الملك منذ زمان. حكم الغابة بيد من حديد، ولكن تراءى له أنه ما حكم إلا بالظلم، ولن يحكم إلا بالظلم.

قال إن الثعلب أولى بالحكم، وتبين أنه ماكر، عربيد، متحايل.. لن يوفر أي أمان للغابة.

قال: لم لا ننصب الحمار سلطانا؟ ولكن متى كان للحمار عقل يفكر به، فهو لحمل الأثقال رفيق.. فيكفيه همّ تعبه.

والنمر، أفيه عيب لا نعرفه؟. بلى. إنه صديق الجور. ويا ما اشتكت الحيوانات المغلوبة على أمرها من بطشه.

والدجاجة؟ آه، آه، على هذا الاختيار. ما يحل الظلام حتى تصعد الخم أو شجرة خائفة، مفزوعة حتى من بني جنسها.

فمن يحكم الغابة؟

والزرافة، والقرد، والجدي، والأفعى،...

وقام الحكيم من مجلسه غاضبا. لم يعثر على حيوان يكون أهلا لهذه المهمة. وضرب كفا بكف ساخرا من هذه الكائنات التي لا تنعم بالسعادة رغم أنها لا تملك عقلا تفكر به كالإنسان.

12- باب التضحية والتفاؤل والتشاؤم وأشياء أخرى.

أ -ضغط منخفض..ضغط مرتفع.

_ سيدي..أأنت بخير؟

_ أجل.. أجل..

_ جيء بك أمس مغمى عليك.. كنت مريضا جدا.. لم يكن بدنك يشي بأنه حي.

_ سقطت إلى الأرض..لا أدري سبب ذلك.. ولكن يمكن لنا أن نرجعه إلى التعب.. التعب سبب الأمراض كلها..أليس كذلك؟

_ لا ينبغي لنا أن نصدق كل الأقوال..أحيانا يقال لنا قيل كذا أو كذا حتى نوهم أنفسنا بوهم أننا أصحاء..وفجأة نتبين أننا أعجاز خاوية.

_ إنما يجب أن تصدق أنني أشعر بالتعب.. وأنا أعرف لماذا أنا على هذه الحال البئيسة..أعني حال ضغطي المنخفض.

_ أنا ضغط دمي مرتفع.

_ نحن نلتقي معا في حالة الإغماء.. أعني حالة الابتعاد عن الواقع.

_ ولكنني لا أتبين أي أثر للتعب في ملامحك.

_ هذا ما تتفوه به زوجي دائما كلما أصبت بالإغماء..تقول لي إن لي بدنا لا يجوز أن يتسرب إليه الداء.

_ يا للعجب.. وكأن زوجك توأم زوجي..

_ ولكن،هل تنطلي علي حيل النساء؟ كلا. يقلن هذا الكلام ليجبرنك على الصمود، مع أنك في حاجة إلى ميتة تريحك من داء الحياة.

_ لا تكن متشائما يا صديقي..

_ لست كذلك.. أنا أدلي برأيي في الضغط المنخفض الذي ابتليت به.. لو كان ضغطا مرتفعا لهان الأمر.

_ لا تقل هذا الكلام.. أنت لم تصب بالضغط المرتفع حتى تستخلص هذه الفكرة..لو كنت كذلك لرأيت أن الآخر جحيم..

_ جحيم.. بل قل هو بركان خامد..فإذا انطلق جرفك إلى قرار مكين..

_ وهذا الآخر؟ من هو؟ أنت أم أنا.. اغرب عن وجهي..

ب- في كل يوم..

كان المتفائل يرى المتشائم دوما مهيض الجناح، عابثا، سائرا بغير رغبة في قدح بوابة الآتي. وكان المتشائم الذي كان صديقا وفيا للمتفائل متفائلا قبل أن يدير ظهره للناس، لأنه تلقى الطعنات، فانكفأ على وجهه. وقد عزم المتفائل أن يعيد صاحبه إلى جادة الصواب.فبادره قائلا:

_ لن أدعوك إلى أن تكون من السعداء..ولكن يتوجب علي أن أنقذك..

_ لم أعد أرى إلا الظلمة تغمر الكون كله.

_ ألا ترى الأشجار الباسقة؟

_ وأنت ألا ترى الكلاب الشاردة؟

_ ألا ترى الورود والأزهار؟

_ وأنت ألا ترى الأشواك والحصى؟

_ ألا ترى الفرح باديا على الوجوه؟

_ ومن أدراك أنه فرح مقنع..وخوف يسكن الحزن الدفين..

_ ألا ترى الطيور محلقة في الفضاء، مشرئبة إلى الحرية والسلام؟

_ وكأنك لا ترى الذئاب التي تنهش أجساد الضعفاء؟

_ ألا ترى الأحلام طافية على السطح تنتظر من يحضنها برفق وتؤدة؟

_ وكأنك تجهل الكوابيس التي تقض مضاجع النائمين؟

_ أفلا تحتمي بصديق يذرو عنك الأوهام؟

_ لا أرى إلا الخيانة والنفاق يعشش في الأفئدة..

بدا للمتفائل أن الأمر سيعمر أمدا طويلا، فودعه بابتسامة رأى فيها المتشائم تواضع المهزومين.

ج - ألاعيب القدر..

من ألاعيب القدر أن يلتقي سيزيف ببروميثيوس في حانة مهجورة إلا من أجساد آيلة للسقوط، غائبة عن الزمان والمكان. لم يتبادلا السلام، وكأن أحدهما عارف بالآخر من زمان.

قال سيزيف :

_ أنا تعبت من حمل الصخرة.

_ وأنا تعبت من أن يلتهم النسر كبدي، ثم أراه يتجدد في كل يوم.

_ أرى أن هذا مسل جدا.

_ كيف تقول هذا الكلام؟ أنت لم تخض غمار هذه التجربة.

_ صحيح هذا القول.. وهو عين الصواب. فلا أنت خضت غمار تجربتي، ولا أنا جربت أن يؤكل كبدي. نحن حالتان مختلفتان، ولكن لهما المعنى عينه.

_ بالله عليك، هل ترى أن لهما معنى واحدا؟ أنت مع صخرة وأنا مع كبد يؤكل ويتجدد باستمرار.. أتسخر مني؟

_ هذا المصير يمثل جوهر الوجود. نحن لا ندري قيمة آلامنا، ونحن نتألم. فلو نظرت إلى ما كتب عنا، والكلام الذي نثر في الهواء، لأصبت بدوخة عجيبة.

_ دوخة عجيبة؟

_ أجل. لايزال الناس يتألمون ؛ كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم..

_ ظننت أن آلامنا خاصة بنا نحن الإثنين.

وضحك سيزيف على سخافة صاحبه، وقد بدا له الآن هزيلا ،ببطن فارغة إلا من كبد يتدلى. سيأتيه النسر بين لحظة وأخرى لينكل به.

قال بروميثيوس :

_ وهل ترى حقا أن الناس مازالوا يئنون وهم يحملون الصخرة، أم تراهم يتصنعون الآلام لقضاء مآرب شتى.؟

_ لست أدري.. إنما وأنا أنظر إلى هذه الأجساد أشفق عليها لأنها زائلة.. ومع هذا فهي تريد البقاء.. ألا ترى معي أنها تتلذذ بالآلام؟

_ صدقت يا عزيزي السيد سيزيف . كنت تريد القول إننا أدينا معنى التضحية ، وهي شرف لا يناله إلا الأقوياء .

_ صحيح . .ولن هل نظل دائما أوفياء للمعاني العظيمة؟ لم لا نشرب نخب الحياة . .

وشربا حتى الثمالة . للمرة الأولى ينسيان أنهما سيزيف وبروميثيوس .

د – القط المتسامح.

كان البيت مليئا بالفئران والأفاعي التي تسعى بين القصب والأخشاب . جاء العطار يجر عربة يدوية زخرت بالأعشاب المألوفة لشربها مطبوخة في الماء ، والأعشاب السامة لقتل الحشرات . تناثر من فيه اللعاب الأبيض حتى أقنع الناس بدوائه ، ثم لم يظهر له أثر بعد ذلك . كان الناس يتندرون بحيله التي لم تعد تجدي نفعا ، ومع هذا كانوا يترقبون ظهوره في كل حين . ولم يظهر له أثر . .

ولأن الحشرات تكاثرت وصارت تعبث بالحاجيات ؛ تمزقها أو تفتها فتا ، فلا تعود صالحة لأي أرب ، فقد آثر ساكن الدار الذي حل حديثا بالحي أن يربي قطا . كان قد قرأ أن القطط تكشف مخبأ الحشرات والزواحف فتنهشها . صار يمده بالأكل حتى سمن بدنه ، وعلمه قسرا بعض الألاعيب للارتماء على الغريب ، والقفز من عل ، وبرحه ضربا لحثه على أكل فأر اصطاده مصادفة في طريقه إلى العمل . وصار يرقبه من بعيد ، فلم يتبين أثرا يذكر لما قام به من أعمال . كان يروقه أن يأتيه الأكل دون أن يبذل أي جهد .لم يأكل فأرا ولا حشرة ولا زاحفة من الزواحف ، ولهذا ارتأى مولاه أن يتخلص منه . حشره في حقيبة وألقى به في طريق عام . لم ينعم بالراحة إلا بضعة أيام حتى تناهى إليه مواؤه وراء الباب . كان يخمش الخشب بمخالبه يريد الدخول . استلقى مولاه على السرير عسى أن يكل فيرحل بعيدا ، ولكنه آثر البقاء . كان هو يتساءل : هل كتب علي أن أمتلك قطا متسامحا ، ومنزلي يعج بالأعداء؟ . جئت بك لمساعدتي في القضاء عليهم ، ولكنك استكنت إلى السكينة .

هل مر زمن طويل على هذه الحادثة، وهو يحدث نفسه، ويؤنبها على سوء اختياره..؟ لأن الطرق على الباب كان يشتد شيئا فشيئا، وهو لا يستطيع القيام بأي حركة. كان هناك هرج وصخب لأناس افتقدوه فأرادوا معرفة ماذا حدث له. وقرب العتبة قط بدا أنه مات حزنا على صاحبه.

13 - الحقيقة.

عن فكرة في قصة لا تنس تكة السروال ، لعزيز نسين.

جئت بالعروس إلى بيتي. كان بيتا متواضعا في منزل مخصص للكراء. هناك أناس آخرون متزوجون طبعا يسكنون البيوت المتبقية. ما راعني حقا هو أن الهواء ينفذ إلى بيتنا في كل حين.

استيقظت هذا الصباح مذعورا، لأن زوجي لكزتني صائحة :

_ انهض يا هذا.. اذهب إلى عملك.

كانت قد نزعت عن جسدها ثياب العرس، وارتدت ثياب العمل المنزلي.

_ ماذا تقولين؟ أي عمل؟ ليس الآن. لن أذهب إلى العمل حتى أرى ولدا يملأ هذا البيت صخبا. ران صمت ثقيل أدخل إلى قلبي الحزن الذي أمقته.

_ آه، أنت حزين إذا، لأنك تظن أنني لن ألد لك ولدا. سترى، ولكن عدني أنك ستذهب إلى عملك.

_ أعدك.. أعدك..

بعد تسعة أشهر وضعت ولدا، سميناه محمودا. كان اسما مباركا استبشرنا به خيرا.

كانت تهدهد الطفل وتحرك شفتيها :

_ ماذا تنتظر يا رجل؟ أو لا تذهب إلى عملك؟ ماذا نأكل وماذا نشرب؟.

_ وما الفائدة من العمل؟ وماذا جنى الذين عملوا؟ لا شيء.. سأفعل ولكن بعد أن تلدي طفلا آخر يؤنس وحدة محمود..

_ فهل تفي بوعدك؟

_ أجل.. أجل..

جاءنا الولد الثاني ولم أف بوعدي. كانت مشكلتي أنني أطلق الكلام على عواهنه، وكأنني لم أخلق للعمل.

_ ليس الآن، ماذا لو جئنا بالولد الثالث؟

_ هذا جيد، ولكن ماذا لو جئنا بالرابع؟

_ هذا أحسن، والخامس.. بعدها سأعمل.. سأشمر عن ساعدي وأفعل الأعاجيب..

امتلأ البيت بالصراخ والعويل والنداءات. كنت أقوى على الصمود وأنا مستلق على فراش متواضع أرقب سكان البيوت الأخرى وهم يذهبون ويجيئون. هم على الأقل أحسن مني حالا لأنهم يعولون أبناءهم.

الآن فهمت أنه علي أن أعول نفسي، ولهذا انفلت خلسة من البيت آملا ألا يقول فيّ أبنائي إنني جبان، علما أن ما جسرت عليه هو هروب من الحقيقة.

14_ موت بائع النوم.

رأيت النوم في زجاجة.. رأيت حلما يموت ويحيا.

البداية.

الآن صار للغالمي حذاء جديد، يعكس ضوء الشمس نهارا، وضوء القمر ليلا. يا له من حذاء جلله السحر ،وكأن الغالمي ساحر. ضحاك. يسحر ويضحك، وهو ينظر إلى هذه الكرة، هذه البيضة، ويقول :(أنا نينجا بائع النوم وآكل الحساء إذا اشتد البرد.). وهذه البيضة هل ستكون كما كانت من قبل؟ تميل إذا مال ثورها أو مرض أو لم ينل حظه من النوم. والغالمي الساحر المزيف فوقها يميل إذا مالت، ويمرض إذا مرضت وهو ينشد :

(اليهودي نام

والرومي نام

ونينجا جاع فلم يأته النوم)

العربي ضحك ليلا ونهارا، واليهودي ليلا، والرومي نهارا.

والغالمي القلق استخفه الطرب وهو يجتر الحساء فأطلق العنان للسانه :

(نينجا يا نينجا

يا سيد الغابة

يا شوكة في حلق أكول

يا فأر الملّاح)1

وصار ينظر إلى السماء ويقول :

(اللهم أنزل غضبك)، وتحسس رأسه وهو يلعن أباه الذي لم يعتن به لما كان مريضا.

وهو يرى أطفال الملّاح يتجهون نحوه، فهم المسكين أنهم سيسخرون منه ويصيحون : نينجا الأقرع.

يا كان وماكان شيء حتى هذه اللحظة، حتى صار للغالمي حذاء أسود، له خيطان ؛ الأول أبيض والآخر أسود. اشتراهما من حي الملاح. ملّحوا لحمه فابتاعه. وهو يتذكر البائع الذي كاد يخاصمه، وأهل الحارة وهم يحكمون بالعدل والقسطاس يضحك عاليا. يضحك الليل والنهار معا. وكأنه لا ينام. وكأنه لا يأكل وهو الشوكة في حلق الأكول. حتى إن ضحكته انتشرت كسحابة دخان. وهل الضحكة دخان؟ بل، هل حكم أهل الحارة بالعدل والقسطاس؟ وهل جاع الغالمي فلم يأته النوم؟ وكيف لا ينام وهو النوم؟ وهل هو مثلنا؟ بل، هل في الملاح ملح وسكر؟

آه، لو يدري الغالمي النحس، القلق أن في الحذاء عطبا، خيطا أبيض وآخر أسود. فمتى كان الأبيض والأسود صديقين؟ متى كانا عاشقين؟.

حكاية لها معنى.

في الدكان، بل في القفص وهو دكان، صورة أسمهان : الجاسوسة السمراء، والبيضاء، والحمراء.. وهل كان لحمها أحمر؟ وهل كانت جاسوسة؟ وهل كانت عينا أو أذنا؟ ونحن ماذا يعنينا من أمرها؟ وهل كانت تحمل الملح على ظهرها لتبيعه أقساطا في دروب الفقراء؟ وهل كانت تدخن؟ وهل كانت عينا على الغالمي؟. ضحك الغالمي

حتى دمعت عيناه، واستند إلى الحائط البارد. يحتسي الحساء وكأنه قهوة بالحليب، وينظر إلى العين السمراء التي تخيفه نظرتها، ويقول : ماتت المسكينة مغدورة. فانتفض صاحبنا مبلولا، وكأنه خرج من حمّام، وكأنه طائر أو فرخ حمام.

زارتنا بنت.

ها هي البنت الشقراء قادمة من مكان ما. جاءت لترى الغالمي ؛ نينجا الفقير الذي تكاد روحه تنفلت من بين جنبيه إذا جاع. جاءت لترى الغالميين ونساءهن البدويات. غنم أسمهان. وهن يجلسن القرفصاء أمام بائع الخبز. يأكلن الخبز ويحتسين الحساء الذي يشبه قهوة بالحليب. وتنظر البنت العجيبة إلى الأسوار في غبن وحسرة. لماذا لا تكون لنا أسوار نشرب داخلها الحساء ونشحذ بعضنا بعضا.

وها هي البنت تصيح في الملأ : بلادكم من أعجب البلدان. يموت فيها الإنسان لأنه لا يأكل إلا الحساء.

فمن يفحمها ويرد كيدها، بل يكيد لها كيدا ويملّح لحمها.

وجاء الغالمي.

والآن جاء دور الغالمي. سيجعلها متنكرة في زي شحاذ. يجعلها ضحكة لا معنى لها. تبكي ليلا ونهارا. شوكة في حلق أكول. مطرا بلا فائدة. بحرا بلا سمك. امرأة بلا رجل..

تلج دروب الملاح. إذا عادت سالمة سلّمنا لها قطعة ذهبية، وإذا ضلت طريقها تركناها وشأنها. ستموت كمدا وغبنا.

نحن الآن أمام طاولة. نقلقل قطعة خشب صغيرة جدا في جوف علبة. لقطعة الخشب ستة أوجه. في الأول كتب (الذهب) وفي الثاني كتب (الفضة)، وفي الثالث (النحاس) وفي الرابع (الحديد)، وفي الخامس (الخشب) وفي الأخير (العذاب).

أريها عجب البلاد. اجعلها شحاذة تشحذ السكاكين في درب الحدادين. تشرب الحساء بنهم الجياع..

كلنا فداك سيدنا الغالمي.

سيتعب ولكنه سينتصر في النهاية.

جئنا بالنسوة البدويات، أعطيناهن الخبز فتعالى صياحهن : غلامنا العظيم، سيجلب لنا النصر، نينجا السعيد.

في جرابه صورة أسمهان، وقارورة مملوءة حساء.

نقلقل قطعة الخشب في جوف الغالمي. والنسوة أنشدن :

(يا ليل طل أو لا تطل

لا بد لي أن أسهرك)

جئنا بالغالمي والبنت الشقراء التي سخرت منا إلى مخرج الحارة. أطلق رجل طلقة نارية من فيه، وهو يغالب ضحكة لا معنى لها، ثم انطلقا فجأة إلى الخلاء الشاسع.

ونحن سننتظر من يعود سالما من الخلاء الموحش. نشرب الحساء ونغني.

النهاية.

جاءنا الغالمي بعد شهر. كان يمشي بتثاقل وكأن بقدميه جروحا غائرة مؤلمة. كان وحيدا. انتصر ولكنه يبدو كالمهزوم. حذاؤه اهترأ وجلده اسود. لم يكن يقوى على الكلام.

نحن خدم له.

جئناه بالماء فشرب، والأكل فأكل.

وبحثنا عن القطعة الخشبية التي خشّبت أهل الشمال والشرق والغرب والجنوب فلم نعثر لها على أثر. فهل كنا نسابق الريح؟

قال رجل :

_ قلبك طائر أبيض يا الغالمي. قلبك خرقة بيضاء..

وضحك الغالمي. لا شك أنه جاع فأكل البنت.

هامش : حي كان يسكنه اليهود.

الفهرس



الحسن بنمونة

من مواليد وجدة سنة 1963. ترجمت بعض قصصه إلى اللغة الفرنسية.

صدر له «مطعم اللحم الآدمي يرحب بكم» عن دار سندباد للنشر والإعلام، بالقاهرة، سنة 2009.



التصميم والطباعة : مطبعة دار المناهل – لو

الثمن : 35 درهم